أسميتها لانا

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـم الكتاب: أسميتها لانا
اســـم المؤلف: إسراء أكرم الغفري
التصنيـــــف: رواية
الحجـــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 156
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 13946 / 2025
الترقيم الدولي: 0 – 198 – 971 – 977 - 978

تدقيـــق لغوي: نشوة أبو الوفا
تصميم غـــلاف: منى الموجي
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

أسميتها لانا

إسراء أكرم الغفري

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روحكِ يا لانا،

يا من خرجتِ منّي...

ثم خرجتِ من الدنيا قبلي.

متِّ في حضني...

وغُسّلتِ بكفّي،

ودُفنتِ في الغربة، بلا أرض، بلا أب، بلا وداع...

فمن يواسيني بعدك؟

إلى والدكِ أحمد

الذي بقى في غزة، يحارب القصف بانتظارك،

فأوصلتُ له خبر موتك بدلًا من شفاءك.

إلى عائلته الشهداء،

الذين سبقوكِ إلى السماء،

الذين رحلوا في الحرب،

ولم يُمهَلوا حتى ليحملوكِ للمرة الأخيرة.

إلى والدي، الداعم الأول في حياتي،
الذي وإن لم يكن بجانبي يومها، كان في قلبي سندًا لا ينهار.

وإلى أمي، نبع الحنان الذي استحضرتُه في وحدتي،
واستندتُ إلى دفئها رغم المسافة، كما كنت أفعل دائمًا.

إلى إخوتي وأخواتي،
الذين حملوني بكلماتهم، بدعائهم، بصمتهم الثقيل المملوء بالمحبة

إلى شعبي المحاصر،
الذي يُولد في النار، ويُدفن في صمت العالم،
ويواصل الحياة كأنها لا تؤذيه.

إلى كل أمّ مشت خلف جنازة صغيرها،
وعادت بذراعين فارغتين،
تخبئ فيهما قلبًا مكسورًا لا يُشفى.
إلى وطني...
الذي لم يحمنا،
لكنّه ظل يسكن في صوتي، في حزني، في قصتي.
أهديكم هذه الرواية،

لكل من فقد... ولكل من بقى،
ولكل من لا يزال يكتب اسمه في الحزن،
ويبحث عن نجاةٍ لم تأتِ
أهديكم هذه الرواية...
دمعة لم تجف، ونداءً لا يسمعه إلا من عاش الفقد كما هو....

إسراء أكرم الغفري

****

في حضن الأم تُولد الحكايات، وتُخفى النهايات،
فهي وحدها من تمنح الحياة مرتين:
مرة حين تلدك، ومرة حين تحميك من قسوة العالم بصمتها.
الأمومة ليست فصلاً عابرًا في عمر امرأة،
بل كتابًا مقدّسًا مكتوبًا على صفحات من دم،
وخوف،
وحب لا يفنى.

****

مقدمة

في زمنٍ كان الضوء فيه عملةً نادرة، وفي وطنٍ أثقلته الحروب، وقلوبٍ تبحث عن بقعة دفء... جاءت هي.

جاءت كالحلم، كالإجابة التي طال انتظارها، كصوتٍ ناعمٍ في عالمٍ يضجّ بالضجيج والخسارات. يوم نطق الطبيب بخبر الحمل، ارتجف قلبي كما لم يفعل من قبل، وكأن الحياة اختارت أن تمنحني فرصةً أخرى... "لانا"

الملاك الذي خطف قلبي قبل قدومه؛ ليس لأن الاسم جميل فقط، بل لأنه يشبهها، ناعمٌ، وهادئ لكنه يحمل في طياته قوةً خفية، كأنثى ستُزهر في أرضٍ سُقيت بالحب رغم الجفاف.

هذه ليست مجرد رواية عن أمومةٍ وطفلة، بل حكاية وطنٍ صغير اسمه "لانا"، خُلِق في قلبي يوم وُلدت، ونما في ظلال الحرب، وكبر في كنف الصبر.

سأسردها كما عشتها... شهرًا بشهر، دمعةً فابتسامة، وجعًا فاحتواء، وأمنيةً كنتُ أُخفيها تحت وسادتها كل ليلة.

لأنها لانا... ولأنني أسميتها "لانا" رزقني الله بها، فصارت الدعاء الذي استُجيب، والنور الذي أضاء عتمة قلبي، فقلت:

الحمد لله الذي وهبني من رحمته لانا.

صغيرتي

يا زهرةً تفتحت في قلبي قبل أن ترى النور...
يا نسمةً حلوةً هبت على حياتي فملأتها ربيعًا دائمًا...
لانا، يا كل الأمنيات المجتمعة في اسمٍ صغير،
حين احتضنتك لأول مرة؛ شعرت أن العالم كله توقف ليشهد ولادة الحب الحقيقي.
دعوت الله أن يرزقكِ السعادة أينما حللتِ،
أن يفتح لكِ أبواب الخير حيثما كنتِ،
أن يجعل وجهك نورًا، وخطاكِ بركة، وعمركِ طاعةً وهناءً.
سأظل أدعو لكِ ما حييت،
وأخبئكِ في قلبي، كما تُخبأ النجوم في حضن السماء...
يا أغلى هدايا العمر، يا أجمل ما أنجبت أيامي.
أحبكِ فوق ما تحمله الكلمات من معانٍ،
وأنتظر منكِ أن تكملي حكاية العمر بجمالكِ،
ونقاء روحكِ،
وابتسامتكِ التي تضيء حياتي.

بشـارة تشـريـن

بشارة تشرين

في إحدى ليالي تشرين، وكان الهواء آنذاك معطّرًا برائحة المطر، شعرت بألمٍ مفاجئ في بطني، ودوارٍ أربكني.

خفت، وأسرعت إلى المستشفى، يراودني القلق من هذا الوجع الغامض.

قام الطبيب ببعض الفحوصات والتحاليل، وما إن ظهرت النتائج حتى اقترب مني بابتسامة خفيفة، وقال:

"مبارك، أنتِ حامل!"

لم يكن حدثًا عاديًا بل كان وعدًا جديدًا بالحياة.

بدأت رحلة الحمل محمّلةً بالتعب والإرهاق الجسدي، ولكن كيف يثقل الجسد وداخله حياة تنمو؟ كل ألم كان يهون، كل تعب كان يتلاشى، عندما أشعر بها تتحرك في أحشائي.

كنت أسأل نفسي مرارًا:

"ترى، أستكون بنتًا أم ولدًا؟"

لكن قلبي كان مطمئنًا، راضيًا بكل حال؛ ما دامت الخِلقة كاملة، فذلك أعظم النِعم.

دعوت الله أن يكون طفلي بجمال سيدنا يوسف، وأخلاق عائشة.
دعوت أن يكون له قبول بين السماء والأرض.
مضت الأيام ثقيلة بالشوق، خفيفة بالأمل، حتى جاء اليوم الذي انتظرته بفارغ الصبر: موعد الفحص الطبي.
جلستُ أراقب شاشة الجهاز، أعد نبضات قلبي مع كل دقة تظهر على الشاشة، حتى قطع الطبيب تأملاتي قائلاً بابتسامة:
"مبروك، ستصبحين أمًا لأجمل طفلة!"
يا لسعادتي، ويا لهنائي! بنت، كما تمنيت دومًا. انتظرتها على أحرّ من الجمر، تملئني الأسئلة:
"ترى، من ستشبه؟ أستحمل ملامحي أم ملامح أبيها؟"
"أيكون شعرها نحاسيًّا يضيء تحت الشمس، أم أسودًا كسواد الحكايات القديمة؟"
مرت أشهر الحمل، تحمل في طياتها الفرح والقلق معًا، حتى اقترب الموعد الكبير.
كنت خائفة، نعم، كانت أعصابي مشدودة كوترٍ قديم، ولكن فكرة أنني سأصبح أماً كانت تبعث الطمأنينة في قلبي.
كان الجميع ينتظر قدومها بفارغ الصبر؛ فهي أول حفيدة للعائلة، وحلم اجتمع عليه قلوب كثيرة، أول بسمة جديدة تُزهِر في بيتنا.

أعددنا لها الزينة كما تُعدّ للأميرات، واخترنا ملابسها قطعةً قطعة:
"هل ستكون صغيرة أم ممتلئة؟"، "هل تناسبها هذه الألوان؟"
حتى اسمها أرهقنا تفكيرًا، لكن والدها قال بيقين العاشق:
"هي العوض، وهي أول فرحتنا."
ورتبنا كل شيء لاستقبالها كما تستقبل الأميرة في قصرها.

****

ولادة الضوء

ولادة الضوء

وفي السادس عشر من أغسطس لعام 2022، وفي غرفة مضاءة بقلبي قبل مصابيح المشفى، ولدت صغيرتي.

خرجت إلى العالم، كانت صغيرة جدًا، ولكنها حملت كل عالمي بين يديها.

ضممتها إلى صدري، شعرت كأن رئةً ثالثةً قد خُلقت لي، رئةٌ أتنفس بها الحب والأمل معًا.

لم أكن أتخيل طبيعة شعور الأمومة حتى تلك اللحظة، فإذا به أجمل ما يمكن أن يهبه الله لإنسان.

نظرت إليها وهي نائمة فوق صدري، فابتسمت وسميتها: لانا.

دعوت الله أن تكون من الصالحات، وأن تملأ حياتي، والعالم كله، فرحًا ونورًا، خرجتُ من غرفة العمليات، وصغيرتي المدلّلة في حضني، كأنني أحتضن النور بين ذراعي. كانت أنفاسي متقطّعة من الألم، لكنّ رؤيتها بين يديّ، تُطفئ وجعي كما تطفئ قطرةُ ماء لهيبًا مشتعلًا.

من حولي، تهافتت الوجوه بفرحٍ يشبه ضوء الشمس في صباحٍ شتويّ.

الكلّ يبتسم، يتسابقون لحملها، والزغاريد تعلو في المكان، والتبريكات تملأ الآذان "ما شاء الله، وكأن هذه الطفلة ملاك نزل من السماء".

ضحكت العائلة فرحًا، فهي أول حفيدة للجميع.

ضمّها والدها إلى صدره، وأذّن في أذنها اليمنى، كما هي سنّتنا، ثم وضع في فمها القليل من التمر، ودموع السعادة تلمع في عينيه.

كنتُ متألمة حدّ الوجع، لكنّ دفء صغيرتي، وابتسامة من حولي، كانت تهوّن عليّ كل شيء.

مرت ساعات من الحب، حتى دخل الطبيب، نظر إليها وقال مبتسمًا:

"ما شاء الله، إنها من أجمل الأطفال الذين رأيتهم في حياتي".

وبعد أن طمأننا على صحتها، أذن لنا بالعودة إلى المنزل.

حملتها إلى البيت كما تُحمل الأحلام، وكأن العالم كلّه صار بين يديّ.

وصلتُ المنزل، فإذا الزينة تملأ الجدران، والألوان تُشرق، والزغاريد ما زالت تعانق السقف.

لأول مرة، بدأت أصدّق أنّ الحلم صار حقيقة، وأن تعب الحمل صار له ثمرة اسمها "لانا".

بدأت أستوعب أنني أصبحتُ "ماما"، وأن هناك من يحتاجني، يشتاق لحضني وحناني. كنتُ أشتاق إليها إن نامت، ويغمرني الفرح إن بكت لترضع. قلبي كان يرقص كلما احتاجتني.

كنت أبدل ملابسها مرارًا، وأرشّ لها عطر الورد، فقط لأراها متألقة كزهرةٍ نضرة. الكل كان سعيدًا بها، وكأنها رزق نزل على البيت كلّه.

أما أنا، فقد أحببتها حبًّا لا يُوصف، حبًّا يشبه حبي لوطني، بل أكبر.

فحبّ لانا كان حبّي لحياةٍ خُلقت منّي، وملأت عالمي بكل ما هو جميل.

حضن العالم

حضن العالم

ثم بدأ الشهر الأوّل من حياة لانا...
ذلك الشهر الذي لا يُشبه أي بداية، والذي كُتبت فيه أولى ملامح الأمومة على قلبي.
كانت لانا تستيقظ في ساعات الفجر الأولى، فيعمّ البيت سكون لا يقطعه سوى صوتها الصغير، كأنها تقول: "أنا هنا، أحبّكم، لكني أحتاج دفئكم."
كنت أهرع إليها، أضمّها إلى صدري، فأشعر وكأن قلبي يرتّب نبضه على وتيرة تنفّسها.
في هذا الشهر، تعلّمتُ كيف أفهم بكاءها، أكان جوعًا أم بردًا، أم فقط حنينًا لحضنٍ يأويها؟ تعلّمت كيف أحملها دون أن أوقظ وجعًا في جسدها الصغير، كيف أُلبسها دون أن أزعج نعومتها، كيف أُرضعها وأنا أتنفس معها كلّ قطرة حياة.
كنت أراقب وجهها لساعات، كأنني أخشى أن يفوتني تغيّر في ملامحها.
ضحكتها الأولى، ولو كانت وهمًا عابرًا، كانت كافية لتجعلني أبكي من الفرح. كل حركة من يدها، كل التفاتة بعينيها، كل شهقة ناعسة كانت معجزة لا تُقدّر، وفي الليل، حين تنام على صدري، كنت أُقسم في داخلي

أنني لن أسمح للعالم أن يمسّها بسوء، كنت أشتاق إليها إن غفت، وأُسرّ ببكائها إن نادتني، فقد صارت نداؤها هو رسالتي في هذه الحياة.

كان شهرًا من الذوبان الكامل في تفاصيلها، ومن التعلُّم الصامت كيف أكون أمًّا. شهرٌ علّمني أن الحب لا يحتاج إلى كلمات، بل إلى نظرات، ولمسات وهمسات في أذن الحياة الجديدة التي اسمها لانا.

وحين حل الشهر الثاني، كأن الأيام بدأت تُبطئ خطواتها لأعيش تفاصيل لانا أكثر، لأحفظ ملامحها الصغيرة قبل أن تتغير، قبل أن يكبر وجهها ويأخذ شكله الخاص.

صارت نظراتها أطول، وكأنها تحاول أن تفهم هذا العالم الذي خرجت إليه فجأة.

كانت عيناها تتبعاني، تتحركان معي أينما ذهبت، وكأنها تقول لي: "أنا أراكِ يا ماما، لا تبتعدي."

كنت أستجيب لهمستها الصامتة، لا أتركها كثيرًا، أعيش بجوارها وكأن قلبي وُضع في مهدها، ابتسامتها هذه المرة لم تكن مجرد انعكاس، كانت واعية، حقيقية، فيبتسم قلبي كله معها.

كنت أنتظر تلك اللحظة في كل يوم، وأرتّب وقتي حول ضحكتها، همساتها، نظراتها كأنها شمس تنير نهاري، بدأت تُصدر أصواتًا خافتة، همسات تشبه الحكايات الصغيرة، فأحادثها وأجيبها، وأتظاهر بفهم كل حرفٍ تقول، فقط لأُشعرها أني أسمعها، أني معها.

لم تعد تبكي كثيرًا، أصبحت تعرف أنني سأكون بجانبها قبل أن تحتاجني، أن حضني ليس بعيدًا، وأن صوتي يغني لها وحدها.

في هذا الشهر، كبرت لانا قليلًا، وكبر حبها أكثر، تعلّمت أن الأمومة ليست رعاية جسد فحسب، بل فهم روحٍ تنمو أمامك، روحك.

ثم جاء الشهر الثالث، ومعه بدأت لانا تكتشف صوتها، لا بالبكاء كما في الشهور الأولى، بل بتلك الأصوات العذبة التي تُشبه زقزقة عصفورٍ صغير أول ما يتذوق حرية الطيران.

صارت تضحك بصوتٍ مسموع، ضحكة ناعمة، قصيرة، لكنها قادرة على محو كل تعبٍ في قلبي، كنت أستمع إليها وكأنني أستمع إلى لحنٍ أُلف خصيصًا لأجلي، لحن لا يملّه القلب أبدًا.

بدأت لانا تُمسك بالأشياء، تتأمل يديها، وكأنها للمرة الأولى تدرك أنها تملك القدرة على لمس العالم، كانت تنظر إلى أصابعها بدهشة، تُحركها ببطء، ثم تبتسم.

كم كنت أضحك معها، وأرشدها إلى لعبةٍ صغيرة، أو دميةٍ ناعمة، وكأنني أقدّم لها الحياة مبكراً، صارت تلتفت حين أُنادِيها، تعرف اسمي، وتعرف ملامحي، وتعرف قلبي من دون أن أخبرها.

في هذا الشهر، شعرتُ أنها بدأت تنتمي إليّ حقًا، وأنها صارت تعرفني كما أعرفها، بحبٍّ فطريّ، بلا شروط، كانت تنام بعمقٍ أطول، وكأنها بدأت تثق

أن الدنيا بخير طالما أنا بجانبها، وكنتُ أسهر أراقب أنفاسها، لا لأنني قلقة؛ بل لأنني عاشقة، عاشقة لهذه الروح التي تنمو أمامي كل يوم.

الشهر الثالث كان شهر الوعي والابتسامة، شهر التعلّق، وشهر العشق الأول. لانا لم تعد طلتي فقط بل أصبحت كل المعاني التي لم أكن أعرف أنها ستسكن قلبي يوماً ما.

وفي شهرها الرابع بدت لانا وكأنها تُزهر فجأة، وجهها صار أكثر امتلاءً، ضحكتها أكثر وضوحًا، وحركاتها أكثر جرأة، لم تعد تلك الصغيرة التي تكتفي بالنظر، بل صارت تلوّح بيديها وتُحرك قدميها، وكأنها تُعلن حماستها للحياة.

في هذا الشهر، بدأ صوتها يملأ البيت، ليس بكاءً ولا أنينًا، بل أحاديث طفولية لا تُفهم، لكنها مفهومة لقلبي، كانت تثرثر بلغتها، وتنظر إليّ وكأنها تنتظر جوابًا، فأُجيبها بابتسامة، فتضحك، فنضحك معًا، صارت تقلب جسدها من جنبٍ إلى آخر، وتحاول أن ترفع رأسها بثبات، كنت أمدّ يدي دومًا خلفها، أخشى أن تسقط.

لكنّها كانت تجرّب الحياة، وأنا أتعلم كيف أترك لها مساحة لتكتشفها دون خوف، كنت أُجلسها في حضني أمام المرآة، فأراها تنظر إلى انعكاسنا بدهشة، تُطيل النظر، ثم تضحك، كأنها تقول لي: "هذه أنا، وهنا أمي، ونحن معًا."

بدأت تتعلّق بصوتي، بنبضي، بطريقة حملي لها، لم تعد تنام بسهولة إن غبت، ولم تعد ترتاح إلا إذا كانت ذراعاي تحتضنانها.

في هذا الشهر، لم تنم لانا فقط في سريرها، بل نامت في قلبي، بعمقٍ لا يُوقظ، وصرتُ أنا لا أستطيع النوم من دون أن أطمئن أنها بجانبي.

الشهر الرابع كان بداية تشكّل العلاقة بيننا، علاقة لا تكتبها الكلمات، بل تنسجها التفاصيل الصغيرة...

كل ابتسامة، كل صوت، كل حركة منها، كانت تزيدني تعلقًا، وتجعلني أقول في داخلي كل يوم: "الحمد لله أنكِ أتيتِ يا لانا"

ثم أطلّ الشهر الخامس، وكأن لانا بدأت تُدرك أنها ليست ضيفة عابرة في هذا العالم، بل روح صغيرة تسعى، على طريقتها، لترك أثرها على كل من حولها.

كبرت ملامحها قليلًا، نعم.

لكن دهشتي بها لم تصغر، كل يوم كانت تُشبه نفسها أكثر، وكل يوم كنت أراها بوجه جديد، لا يُشبه الأمس، وكأنها تنسج هويتها على مهل، كما تنمو الزهرة في حضن النور.

صارت تقهقه حين أُداعبها، تلك الضحكة التي تخرج من أعماقها، تلامس قلبي، وتوقظ فيه أماكن لم أعلم أنها تنتظر الضوء، كنت أضحك معها، لا لأشاركها فقط، بل لأنني وجدت في ضحكتها سببًا جديدًا للحياة.

باتت تُميّز الأصوات بوضوح، تلتفت حين تسمع صوت أبيها، وتبتسم حين تسمع صوتي من بعيد، كانت تراقب شاشة التلفاز، تصغي، تندهش، وحين تسمع الموسيقى، تتحرك قدماها الصغيرتان بإيقاع عجيب، وكأن جسدها يعرف الفرح قبل أن تعرفه الكلمات.

في هذا الشهر، تعلّمت أن تمسك ألعوبتها بكلتا يديها، وتحاول وضعها في فمها! لم يكن الأمر مجرد لهو، كانت تستكشف، تفهم، تحاول أن تعرف هذا العالم بطرق الأطفال: بسيطة، صادقة، وعميقة أكثر مما نظن، كنت أُجلسها على وسادة مرتفعة، وأُراقبها تحاول أن تُوازن جسدها الصغير، تتمايل قليلاً، ثم تضحك؛ فأضحك معها، وأمدّ يدي لا لأمنعها من السقوط، بل لأكون دائمًا تلك اليد التي تثق بأنها ستلتقطها.

قضت وقتًا أطول مستيقظة، وكنت أملأ ساعات يقظتها بكلماتي، بقلبي، بأغنياتي، كنت أحدثها عن كل شيء، عن الشمس التي تشرق لتقول لنا إن الغد ممكن، عن العصافير التي تأتي لتزور نافذتنا كل صباح، عن الزهرة التي نبتت أخيرًا في أصيص الشرفة بعد طول انتظار.

كنت أؤمن أن كل ما تقوله الأم لطفلتها، يسكن فيها، ينمو معها، ويزهر يومًا ما في مكان لا نراه.

وفي هذا الشهر صارت لانا رفيقتي بحق.

ضحكاتنا، نظراتنا، لحظات الصمت الطويل بيننا، صارت تصنع خيطًا من الحنان لا يقطعه الزمن.

الشهر الخامس علّمني أن أرى العالم بعينيها، علّمني أن الأشياء التي نظنها عادية، تصبح ساحرة حين نعيشها مع من نحب.

حتى حل الشهر السادس من عمر لانا وكأن الحياة قررت أن تهديني فصلًا جديدًا من الفرح الخالص، كان الشهر السادس كأنّه فصلٌ آخر من الحكاية، الحكاية التي كانت بطلتها لانا، ونبضها أنا.

استيقظتُ ذات صباح على صوتٍ صغير يتسلّل من جوار سريري. لم يكن بكاءً! بل صوتًا يشبه الهمس الأول الذي يخترق صمت الحياة.

"ما... ما"

هكذا قالتها، ارتجف قلبي، ثم انفجر ضاحكًا من الدهشة، نظرتُ إليها، لم أصدق.

أعادتها ثانية: "ما... ما".

يا الله، كيف لتلك الحروف البسيطة أن تهزّ الروح هكذا؟ كأن قلبي سمع اسمه للمرة الأولى.

أصبح لدي اسم آخر أجمل مما ظننت "ماما"

في ذلك الشهر، بدأت تتفتّح كالزهرة في نيسان، كانت نبيهة على نحوٍ يثير الدهشة، تميّز الأصوات، تلتفت نحو من يناديها، تراقب حديث الكبار وكأنها تفهمه، وتبتسم ابتسامة من يعرف سرّ اللعبة ولا يريد البوح به بعد.

بدأت مرحلة التسنين، فغدت أكثر انشغالًا بالعالم، كل ما تصل إليه يداها تحاول تذوّقه، وكل شيء تتحسّسه بفمها قبل عينيها، كنت أعلم أن هذه العلامات الصغيرة، وإن أرهقتني، تعني أنها تنمو وأن الحياة تمضي بها.

جلست ذات مساء على السجادة، وأحطتها بالوسائد كما لو كنتُ أبني لها حصنًا من الأمان، رفعت ظهرها الصغير بثبات، نظرت إليّ بنظرة انتصار صغيرة، ثم ضحكت، ضحكتُ بدوري، وصفّقت لها، فصفّقت بيديها الصغيرتين كما لو كانت تفهم اللعبة، تلك اللحظة، علمت أن الثقة تُزرع في الضحك، وأن الحبّ يمكن أن يُعلّم الجسد التوازن قبل العقل.

بدأت تنظر من النافذة كثيرًا، كانت تحدّق في حركة الأشجار، في هبوب الريح، في خفقان جناح عصفور يمرّ عابرًا، كنتُ أضمّها إلى صدري وأشير إلى السماء، أقول لها بصوتٍ حالم:

"هناك يا لانا، هناك يسكن الله، هناك السلام."

كانت تحدّق طويلًا، وكأن روحها تترجم الكلمات إلى نور.

وفي لحظات غيابي، ولو كانت دقائق، كانت تعبس، وحين أعود، تضيء. تمدّ يديها نحوي، تُمسك وجهي بين كفيها وتقرّبني منها، كأنها تحاول أن تقول:

"ابقَيْ، لا تذهبي بعيدًا عني."

بدأت تتذوّق الطعام، أول ملعقة كانت مغامرة، بعضها أحبّته، ففتحت فمها ضاحكة، وبعضها رفضته، فأغلقته وكأنها تعلن العصيان، لم يكن

الطعام وحده هو الذي يُطعمها؛ بل الضحك، والرائحة، والحنان الذي يسكن يدي وأنا أُطعمها.

كانت تحبّ المرآة، تجلس أمامها طويلًا، تتأمل وجهها، تضحك لصورتها، تلوّح لها، كنت أقترب منها وأهمس:

"هذه أنتِ، وهذه الحياة كلها تراكِ جميلة كما أراكِ أنا."

الشهر السادس لم يكن مجرد مرحلة، كان بداية الوعي، بداية الانفصال الجميل، حين تبدأ روحك بالخروج منك، لتقف أمامك، وتحدثك، وتحبك، وتضحك معك.

كنت لا أراقبها فحسب، كنتُ أزهر معها.

****

صوتها يشبه قلبي

صوتها يشبه قلبي

حلّ الشهر السابع، وبدأت لانا تخرج من طور الطفولة الصامتة، لتصبح أشبه بكائن صغير مفعم بالذكاء، يُراقب العالم بعينين مندهشتين كأنهما بوابتان للكون، لم تكن تشبه الأطفال من عمرها، كانت شديدة الإدراك، سريعة الفهم، تُمسك التفاصيل كما لو أنها وُلدت لتلاحظ، لتكتشف، لتدهشنا كل يوم من جديد.

كنت أراقبها وهي تتفاعل مع من حولها بوعيٍ مذهل، تعرف متى يُقال "بابا"، ومتى "ماما"، تُميّز الأصوات والنبرات، وتستجيب للنكتة بابتسامة حقيقية، لا مجرد ردّة فعل طفولية، كان في عينيها إدراك، كأنها تسمع الكلام وتفهمه، تحفظ الوجوه وتقرأ الأرواح.

لا أحد يمر بقرب لانا دون أن يحاول أن يلعب معها أو يضحكها، كانت محبوبة، بشكلٍ يفوق الوصف، حتى من لا يحبّ الأطفال يقع في حبّها بسهولة.

كانت تجلس وسط الجميع، تُصفّق، تُصدر أصواتًا مضحكة، وتلوّح بيديها كأنها تُحيّي جمهورها الصغير، يتسابق الجميع ليحملها، لتجلس في حضنه، حتى أصبحنا نضع لها "دورًا" للعب، وإلا نشبت مشاحنات صغيرة بين الأحبة:

ـ "دوري أنا!"

ـ "لا، لانا تضحك معي أكثر!"

وكانت، كعادتها، تُنهي النزاع بضحكة صغيرة تُذيب القلب، كنت أراها في أحضان والدها تتدلل كما تتدلل الأميرات في قصص الجدات، كان يعود من عمله مهرولًا كما اشتاق عمرًا كاملًا ولا يبدأ يومه إلا بضحكتها، يحدثها كأنها تفهم كل شيء وهي ترد عليه بابتسامة فيها شيء من الدهاء وشيء من الحب الخالص.

أما جدتها كانت لا تشبع من النظر إليها تلبسها، تمشطها، تقبل قدميها الصغيرتين وتقول لي:

"هذه ليست حفيدتي فحسب هذه حياة كاملة جاءت من رحمك".

جدها أيضا كان لا يكف عن مداعبتها يحملها على كتفيه كأنها راية فرح لا تنكس ويهمس لها بأدعية لا يفهمها سواه.

في هذا الشهر كنت أراها تكبر بطريقة غير مرئية لم تكبر في الحجم فحسب بل بالفطنة في طريقة الفهم وتعاملها مع الأصوات ولغة العيون، كانت تعرف متى تضحك متى تتدلل متى تختبئ في حضني إن شعرت بشيء لا يعجبها.

أما أنا فكنت اكتشف معها شكلًا جديدًا من الأمومة، أمومة لا ترعى فقط بل تدهش وتؤمن وتفتخر.

كنت فخورة بها، أراها تنمو بسرعة، لكنها لا تتسرّع، تتقن كل مرحلة، كأنها تحفظ خطواتها وتقدّمها بإبداع.

في هذا الشهر، شعرت أن لانا أصبحت نجمة المجرة الصغيرة، الكل يدور في فلكها، والكل يريد لحظة من نورها.

أما قلبي، فكان يزداد تعلقًا بها، كل يوم معها كان درسًا في الحب، وفي الدهشة، وفي الحياة.

كان الشهرُ الثامن أشبه بزهرةٍ فتحت بتلاتها دفعةً واحدة، تحمل في كلّ ورقةٍ منها عبقًا من المحبة والدهشة والحنان.

لانا لم تَعُدْ مجرد طفلةٍ تمشي على خطى البراءة، بل باتت كيانًا صغيرًا يحترفُ سحر القلوب.

كلُّ من حولها كان مأخوذًا بها.

أبوها لا يمرُّ يومٌ دون أن يحتضنها كما لو أنها كنزه الذي لا يفنى.

كان يجلسها على ركبتيه ويخاطبها بجدية العاشق:

"أخبريني يا لانا، بماذا تحلمين؟"

فتضحك هي، وكأنها تُدرك أكثر مما تُفصح.

جدّتها، التي كانت تضع لها الطعام بيديها، تقول لي كل صباح:

"هذه البنت ليست كبقية الأطفال، فيها نورٌ لا يُشبه سوى الأنبياء."

أما جدُّها، فكان يمدّ يده لها قبل أن يمدّها لي، يحملها كما تُحمَل الأحلام، ويهدهدها بأنغامٍ من زمنه الجميل.

كنتُ قد بدأتُ تعليمها المشي، أخطو بجانبها كما تسير الأرض بجانب السماء، ببطءٍ، برفقٍ، بخوفٍ مُمزوجٍ بالفخر.

تمسك بأصابعي، وتُجرّب.

تسقط... ثم تضحك... تنهض... فتصفق لنفسها، فأصفق معها، كأن العالم كلّه يتعلّم من لانا معنى المثابرة.

ولأن لقلبي معها طموحًا لا يشبع، بدأتُ أُلقّنها بعضًا من آيات القرآن الكريم.

كنتُ أرتّل بصوتٍ خافتٍ، وهي تُحدّق فيّ كأنها تحفظ المعاني لا الكلمات.

كانت تكرّر الحروف بطريقةٍ عجيبة، كأن الله وضع في لسانها هديةً من نور.

مخارجها واضحة، نُطقها سليم، وروحها تسبق عمرها بكثير.

بدأت لغتها تتشكّل، تُنادي باسمي وأنا بين الغرف:

"ماما!"

وأشعر كأن الجدران كلّها تُعيد الصدى معي، تنادي على أبيها، على جدّها، تسأل، وتردّ، وتُشير.

كل من يسمعها، يقول بدهشة:

"يا لهذه الصغيرة! كم تفهم!"

كان الشهر الثامن شهرًا من التفتح...

تفتّحت فيه شخصيتها كما تتفتح زهرةُ اللوز عند أوّل دفءٍ بعد شتاء طويل.

كانت تعرف كيف تُحِب، وكيف تُحَب، وكيف تُضيء الأمكنة حتى دون أن تنوي ذلك، وفي كل يوم، كنتُ أنظر إليها فأُدرك أنني لا أُربّي فقط، بل أُحاط بمعجزةٍ تمشي، وتنطق، وتضحك، وتقول لي:

"أنا الحياةُ، حين تصير بنتًا اسمها لانا"

في الشهر التاسع من عمرها، بدت لانا وكأنها على موعدٍ مع العالم، لا لتُطلّ عليه من بعيد، بل لتخطو إليه بكلِّ عزمٍ ودهشة.

صارت خطواتها أكثر ثباتًا، وصوت قدميها الصغيرتين على الأرض أشبه بنبضٍ جديد في بيتنا.

كانت تمشي نحوي وتضحك، ثم تهرب فتلتفت لتتأكّد أنني أتبعها.

وكنت أتبعها بكلّي، قلبي قبل قدمي، روحي قبل ظلالي.

كانت الحياة تدور حولها...

جدّها يفتح لها الأبواب قبل أن تطرقها، وجدّتها تنتظر ضحكتها كما تنتظر الأرض أول قطرة مطر.

أبوها؟ كان يجثو على ركبتيه ليصير بعينها صغيرًا مثلها، يلعب معها وكأن لا أحد سواهما في هذا الكون.

لانا كانت مركز الدفء في المنزل، نورًا يتوسّط الملامح، ويملأ الزوايا بضحكتها.

كل من يراها، يُقسم أنها مختلفة، أنها "تفهم" بطريقة لا تُشبه عمرها، ولا تليق إلا بالأرواح التي سبقت زمانها.

صرت أسمعها تُشكّل جُملًا صغيرة، كلماتٌ من نور، تنطقها بمخارج الحروف كأنها تدربت عليها في رحمِ الغيب.

تقول: "هاي ماما "، "هاي تيتا"، "هاي"

وتنطق بها كأنها تكتب رسائل عشق في الهواء.

كنتُ في هذا الشهر أحفظ معها أولى السور، تُردّد خلفي دون كلل،

تمدّ يديها إذا قلتُ: "ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا"،

وتُقبّل يدي وكأنها تقول لي:

"وأنا سأردّ الجميل، يا أمي، وإن كنتُ لا أملك إلا قلبي."

في الشهر التاسع... صار للعمر طعمٌ جديد.

شعرتُ أنني لا أراقب نموّ لانا فقط، بل أشاركها صعود السلالم الأولى نحو الوعي، نحو اللغة، نحو الحبّ.

كانت تُربّي فيّ أمومةً أعمق، وتُعلّمني أن الطفل لا يكبر وحده، بل يأخذ قلب أمّه معه في كل خطوة، وخطوات لانا كانت تشبه الطيران.

وفي الشهر العاشر من حياة لانا، شعرتُ وكأن الزمن بدأ يسير على إيقاع خطواتها الصغيرة.

لم تعُد تزحف، بل بدأت قدماها تلامسان الأرض بثقةٍ تنبت من قلب أمّها، من تشجيعي، من يدي الممدودتين لها في كل لحظة.

كنت أمدّ أصابعي فتتمسّك بها، كمن يتمسّك بالحياة، ثم تحاول الوقوف، تتمايل قليلًا، تضحك، ثم تخطو نحو قلبي قبل أن تصل إلى صدري.

في كلّ محاولة، كانت تسقط وتنهض، وأنا أصفّق لها كأنها أتمّت فتحَ مدينة.

كنت أعلمها المشي لكنها في المقابل، كانت تعلّمني الصبر، والحبّ، والثقة بأن الأرواح الصغيرة تستطيع أن تُزهِر فوق الأرض إن وجدت من يؤمن بها.

لم تكن خطواتها وحدها ما يشغلني، بل كلماتها أيضًا.

بدأت لانا تنطق الحروف بوضوحٍ عجيب، تنادي كل شيء باسمه، وتضع الكلمة في مكانها وكأنها تتقن قواعد اللغة بالفطرة.

حين تقول "ماء"، كانت تشير إلى الكوب، وحين تقول "الله"، كانت تضع يدها على صدرها، كأنها عرفت من أين ينبع الإيمان؟

كنت أردد أمامها آيات من كتاب الله، بخشوع الأمّ وبحنان المعلّمة.

وكانت تردّد ورائي، بصوتٍ صغيرٍ نقيّ، كأن السماء تهمس من خلالها.

كنت أُسمعها سورة الفاتحة مرارًا، فكانت تحفظها جزءًا جزءًا، وتُردّد: "العالمين، الرحيم، نستعين، المستقيم"

ثم تبتسم وكأنها تعرف الطريق، كانت ذاكرتها حيّة، وقلبها صافٍ كجدول ماء، تتعلّم بسرعة، وتفهم بعمق، وتُدهشني كل يوم أكثر.

لانا لم تكن فقط تُحاول المشي! كانت تمشي نحو النور، نحو الكلام الطيّب، نحو الله.

وفي هذا الشهر... شعرت أني لا أعلّمها، بل أرافق روحًا عظيمة، في جسدٍ صغير، روحًا خُلقت لتُدهش، لتُحب، ولتُنير.

وفي شهرها الحادي عشر، أصبحت لانا أكثر من طفلة تكبر، أصبحت لؤلؤة تتوسط عقد العائلة، ينعقد عليها الحنان من كلّ الجهات، وتنسج من ضحكاتها خيوط دفء تسري في أوصال البيت بأكمله.

كانت خطواتها الأولى ما تزال خجولة، لكنها تحمل من الثقة ما يفوق سنّها، ومن العزم ما يكفي أن يُبهر كلّ من يراها.

حين تمسك بأطراف الطاولة لتقف، أو تتعلّق بطرف ثوبي لتخطو خطوة صغيرة، أشعر وكأنها تخطو بقلبي معها، وتدفع الأيام للأمام بابتسامة.

أصبحت تدرك الأسماء والوجوه، وتُفرّق بين الأصوات بنباهةٍ لافتة.

تنطق "ماما" بوضوح، و"بابا" بحنانٍ خاص، وكلّما نادت "سيدّو" أو "ستو"، كان قلبي يبتسم قبل شفاهي.

جدّها كان يحملها على كتفيه، ويدور بها حول البيت، وهي تضحك كأنها تطير، كأنّ الأمان كله معلقٌ في عنقه.

أما جدّتها، فكانت تتفنن في إعداد أطباق صغيرة خصيصًا لها، وتغني لها أغاني الطفولة القديمة، وتبخر غرفتها بعطر المحبة.

أما والدها، فكان إذا عاد من عمله، لا يبحث عن شيءٍ في البيت قبل أن يراها، كأنها بوصلته في الحياة، وعنوان الفرح في يومه.

الكلّ كان يتسابق للعب معها، لاحتضانها، لمجرد النظر في عينيها.

هي لم تكن مجرد ابنتي، كانت فرحة تتنقّل بين الأرواح، تُبهج النفوس، وتجمع القلوب.

وفي هذا الشهر، كنت أشعر أنّ بيتنا كله أصبح يدور حول لانا.

كأنها أصبحت الشمس الصغيرة التي نستمد منها دفء الأيام، ونور اللحظات.

حين تضحك، يضحك البيت كله، وحين تبكي، نهرع إليها كما لو أنّ بكاءها نداءٌ إلى قلوبنا جميعًا.

أصبحت لا تمرّ لحظة دون أن تحكي لي شيئًا بطريقتها، بعيونها، بحركاتها، بلغتها الخاصة التي لا يفهمها سواي.

كنت أجلس معها طويلًا، أروي لها الحكايات، وأغني لها، وأقول لها كل ما في قلبي، كأنها رفيقتي، وكأن الزمن يتوقف بيننا.

الشهر الحادي عشر من حياة لانا...

كان شهر التعلّق، وشهر الحُبّ، وشهر العائلة التي صار لها قلبٌ واحد... اسمه لانا

حين حل شهر ميلادها الأول، استيقظتُ في الصباح على نبضٍ غير مألوف، نبضٍ يُشبه الأناشيد السرية التي لا يسمعها إلا قلبُ أمّ، نهضتُ وفي داخلي شوقٌ إلى الفرح، وحنينٌ إلى كل لحظة عشتُها معها منذ ولادتها، قرّرت أن أجعل من هذا اليوم عيدًا يليق بها، لا يقلُّ بهجةً عن ولادتها نفسها.

زيّنتُ البيت بزينةٍ ملوّنة كأحلام الطفولة، علّقتُ البالونات، ونثرتُ الورد على الطاولات، وكأنّي أستعدُّ لاستقبال ملاكٍ من السماء، وانتقيتُ لها فستانًا زهريّ اللون، ناعمَ الملمس، تتخلّله خيوطٌ من نور، كأنّه منسوجٌ من غيمة ورديّة، كان أشبه بثوب أميرةٍ خرجت لتوّها من صفحات الأساطير، فبدت لانا فيه كقطعةٍ من الفجر، تمشي بخطًى صغيرةٍ فوق الأرض كأنّها لا تنتمي إليها.

دعوتُ الأحبّة: أعمامها، عمّاتها، جدّيها، أخوالها، وخالاتها، امتلأ البيتُ بالوجوه المبتسمة، والقلوب المتعلّقة بها.

كانت لانا في وسطهم كالشمس، تدور حولها النظرات بإعجاب، وتُلاحقها الضحكاتُ والدهشة، كانت تمشي بثقة، تمشي فعلاً، تلك التي بالكاد كانت ترفع رأسها منذ أشهر، صارت تمشي وتضحك وتلوّح بيديها، كأنّها تبارك يومها الخاصّ.

تلقّت الهدايا من الجميع، صناديق جميلة تحوي كنوز الطفولة، غير أنّ هديّتي أنا كانت مختلفة، أهديتُها سلسالًا من الذهب، خالصًا ناعمًا، يليق بعنقها الصغير كتيجان الأميرات. كنتُ أعلم في قرارة نفسي أن الذهب وحده لا يفيها قدرها، لكنها تستحقُّه، بل وتستحقّ أثمنَ منه.

وما إن عُلّق حول عنقها، حتى لمعت عيناها الصغيرتان كأنّهما مرآتان تعكسان فرحًا لا يُقال.

أما الكعكة، فكانت عظيمةً بهيئةٍ مهيبة، تفيض بالألوان والأشكال، وقد صنعتها بحبٍّ لا يُقاس، حين قرُبت منها لانا، أخذت تضحك بملء روحها، كأنّها تدرك أنّ هذا الاحتفال صُنع لأجلها.

مدّت يديها نحوها، لم تتردّد، وقطعت أوّل قطعة وسط ضحكات الحاضرين وتصفيقهم، وأنا أراها أمامي كأنّي أراها للمرّة الأولى: طفلةً تمسك بالحياة بجرأة، وتقول لها:

"ها أنا ذا."

في تلك اللحظة، شعرتُ وكأنّ السماء انحنت برفق، وقبّلت جبيني.

نعم، كنتُ أحتفل بلانا، لكنّ الحقيقة أنّني كنتُ أحتفل بي أيضًا! بي أنا التي أصبحت أمًّا، بي أنا التي تعلّمتُ أن أتنفّس من قلب صغير اسمه لانا.

في تلك الليلة، بعدما انفضّ الجمع، وسكن البيت من صخب الضحكات، جلستُ قرب سريرها أتأمّل وجهها الغافي.

كانت لانا نائمةً بسلام، وفي وجهها ابتسامةٌ صغيرة، كأنّها ما تزال تعيش أجواء عيدها في حلمٍ شفيف، لم أستطع أن أمنع دموعي من الانسكاب، كانت دموعًا دافئة، لا تشبه الحزن، بل تفيض بالشكر، وتهمس لله سرًّا:

"شكرًا لأنك منحتني عامًا معها."

مددتُ يدي، ولمستُ أصابعها الصغيرة التي أمسكت بإصبعي كأنّها تطمئنني:

"أنا هنا، وسنكمل الرحلة سويًّا."

قبّلتُ جبينها، وأطفأتُ الضوء، وقلبي يهمس:

"لقد مضى عامٌ يا لانا، عامٌ من الدهشة، من النعمة، من الفرح المتلبّس بالدعاء، والآن، نبدأ عامًا جديدًا، عامًا آخر من الحبّ، من الخطى الجديدة، من الحكايات التي لم تُكتَب بعد."

ثم أغلقتُ باب الغرفة خلفي، وتركتُ قلبي هناك، نائمًا قربها.

ها قد انقضت سنةٌ كاملة منذ أن هلَّت لانا على هذه الدنيا، سنةٌ من العمر كأنّها فجرٌ تسرّب بهدوء إلى أعماق القلب، فأوقد فيه ضياءً لا يخبو.

عامٌ مضى، وأنا أنظر إليها تكبرُ أمام عينيّ، تنبت كزهرةٍ في ربيعٍ دائم، وتعلّمني كيف يكون الحبّ حين يُولد من رحم المعجزة.

ها قد أتمّت لانا عامها الأول، وها هي تفتتح شهرها الثالث عشر بخطى خجولة تارة، وواثقة كمن يعرف وجهته تارةً أخرى.

لم تعد تلك الصغيرة التي تتكئ على أطرافي لتقف؛ بل صارت تمشي إليّ وحدها، وكأنها تهتدي بي من دون بوصلة، وكأن حضني صار وطنها الأول، تعرفه من دون علامات، وتتّجه نحوه من دون تردّد.

خطواتها الصغيرة تُحدث ضجيجًا في قلبي، ضجيجًا ناعمًا كأنّه موسيقى لا يسمعها سواي.

كلّ خطوة لها كأنها تخطّ على الأرض سطرًا جديدًا في قصتنا، وكلّ مرة تمشي نحوي كأنها تقول:

"أنا أتغير، لكنني إليك أعود دائمًا."

كانت تتجوّل في البيت كفراشةٍ تألف الضوء وتعرف الزوايا، تمرّ علينا واحدًا واحدًا، تُنادي، تُلوّح، تضحك، وتسكب من ضحكتها علينا ما يكفي ليغسل عن أرواحنا غبار الأيام، تُشير إلى الأشياء من حولها، تحاول أن تُسمّيها، تسأل بعينيها، وحين أجيبها، تُكرّر الاسم بطريقتها، فتضحك، وأضحك، ونخترع معًا لغتنا الخاصة، كأنّ العالم يُعاد خلقه على ألسنتنا الصغيرة.

صارت تعرف الوجوه وتقرأ القلوب، تختار من تحبهم بعين قلبها، تذهب إليهم، تفتح ذراعيها، وتغمرهم بحبّ لم يتعلّمه بعد من الكتب، لكنه فِطرة ونعمة.

تتحرّك لانا بروح من يعرف أنه محاط بالعطف، مُدلّل بحنانٍ لا يشبه سواه. جدّها يحملها كمن يحمل كنزًا لا يُقدّر، وجدّتها لا تملّ الحديث عنها، كأنها اكتشفت بها الحياة من جديد. ووالدها... والدها يذوب كلما نادته بصوتٍ مرتعش كندى، أو هرولت إليه كأنها لم تراه منذ دهر.

في هذا الشهر، بدا أن كلّ شيء يتوسّع: فضولها، كلامها، خطواتها وقلبي. كانت تكبر، نعم، لكنّها تكبر كمن يمنحنا فرصة العيش من جديد، بعيونها، بخطواتها، بلحظاتها التي تُشبه المعجزات الصغيرة.

قالت نانا فقالت الحرب آن الأوان

قالت نانا فقالت الحرب آن الأوان..

كان الشهر الرابع عشر من عمر لانا، كأنه ربيعٌ يتجدد في كل لحظة، لم تكن الحياة أجمل مما كانت عليه في تلك الأيام، بيتنا كان مغمورًا بالفرح، وقلوبنا تنبض كأن لا شيء في هذا العالم يمكن أن يعكر صفو نعيمنا الصغير.

كانت لانا في هذا العمر تفيض وعيًا وبراءة، وعندما كنتُ أسألها برفق:

"ما اسمكِ؟"

كانت تبتسم بملء قلبها وتجيب بثقةٍ طفولية:

"أنا نانا."

تقولها وكأنها تعرّف العالم على نفسها للمرة الأولى، وكأن الاسم ليس مجرد حروف، بل نغمةٌ تُحاكي الفرح، كانت "نانا" أكثر من اختصار، كانت قصيدةً على لسان ملاك.

في كل صلاة كنتُ أقف فيها، كانت تلحق بي، تقف إلى جواري، تُقلّدني حين أركع وحين أسجد، ترفع يديها كما أفعل، وتهمس بكلماتٍ لا تفهم معناها، لكنها تؤديها بنقاء لا يملك الكبار مثله، كنتُ أنظر إليها وأكاد أوقن أن الملائكة تتنزّل عند قدميها.

لكن... ما أقصر عمر النعمة حين يكون الظلام على الأبواب.

في السابع من أكتوبر، استفقتُ السادسة صباحًا على صوتٍ رجّ الأرض ورجّ قلبي! صواريخٌ تتسابق في السماء، تمزّق صمت الفجر، تزرع الرعب في كل زاوية من المدينة.

أفقتُ من نومي على فزعٍ لا تفسير له، هرعتُ نحو النافذة، لأجد الشارع واقفًا على أطراف الخوف! صمتٌ ثقيل، وجوه مدهوشة، وسماءٌ ترتجف.

ركضتْ لانا إليّ، عيناها دامعتان، ووجهها يختبئ في حضني، ويديها ترتجفان كأنها تقول:

"ماما... خايفه."

ضممتها إليّ بكل ما أوتيت من حبٍّ وخوف، وهمستُ لها:

"أنا معكِ... ماما جنبك."

لكنّي كنتُ أقولها لنفسي أيضًا، أحتاج أن أسمعها، أحتاج أن أصدّقها.

ظلّت الصواريخ تحلّق في السماء ساعةً كاملة، لا تهدأ، لا تبتعد، وكأنها إعلان عن عاصفةٍ قادمة لا تُبقي ولا تذر! في تلك اللحظة، عرفنا جميعًا... الحرب بدأت.

لم تمضِ ساعات حتى بدأ القصف، صوته يقترب، ينهال على الأحياء، على البيوت، على ما تبقّى من الطمأنينة.

أصبح الخوف هواءً نتنفسه، الكهرباء انقطعت، المياه شحّت، والحصار بدأ يُطبِق علينا، على أحلامنا، على خبز الصباح ودفء المساء.

ولانا... كانت لا تدرك تفاصيل ما يحدث، لكنها كانت تشعر.

تشعر أن العالم تغيّر، وأنّ أمّها لم تعد تضحك كما اعتادت، وأنّ البيت لم يعد كما كان، وأنّها باتت تختبئ أكثر، وتصمت أكثر، وتتعلّق أكثر

حلّ الليل على مدينتنا محمولًا على أجنحة الخوف، كأنّه لا يحمل سوى ظلال الحرب ووجع الاحتمالات، لا ضوء فيه، ولا دفء، ولا حتى سكون! كلُّ شيءٍ من حولي كان يرتجف: الجدران، النوافذ، والقلوب.

احتضنتُ لانا إلى صدري، أضمّها كما لو أنّ حضني قادرٌ على حجب العالم عنها، لففتُ جسدها الصغير بغطاءٍ رقيق، وأخذتُ أُهدهدها وأهمس لها بأغنيةٍ كنت أرددها دومًا:

"نانا الحلوه نانا عم يطلعو سنانها"

لكن صوتي كان مبلّلًا بالرجفة، وكأنّه يختنق بكلّ ما أخفيه من خوف.

كانت الغرفة مظلمة، نوافذها مغلقة بإحكام، والبرد يتسلّل من كلّ فجوة كيدٍ خفيّة تطرق أجسادنا.

في كلّ لحظةٍ يهتزُّ فيها الجدار إثر القصف، كانت لانا ترتجف، فأشدُّ احتضانها، كأنّي أريد أن أُخفيها في داخلي، بعيدًا عن كلّ ما قد يمسُّها.

وجهُها الصغير التصق بصدري، وعيناها نصفُ مغمضتين، تُمسك بملابسي بقوّة، وكأنّها تخشى أن أفلت أو أختفي.

وفي تلك اللحظة، لم أكن أمًّا فقط...

كنتُ لها مأوى، وطمأنينة، وصلاةً لا صوت لها.

هكذا مرّت الليلة الأولى.

لم أنم، لم أهدأ، لكنّي ظللتُ محتضنةً ما تبقّى من الحياة في هذه الدنيا... في لانا.

كان الشهر الخامس عشر من عمر لانا مشبعًا بالخوف، مثقلاً بحقائق لم تُخلق لتفهمها القلوب الصغيرة.

كانت الحرب قد اشتدّت، وأصوات القذائف لا تفارق السماء، وكلّ يومٍ يمضي كان يُنذر بأنّ الأسوأ لم يأتِ بعد، البيوت تهتزُّ، والقلوب تتهشّم، والأمل يتقلّص كما تتقلّص أرغفة الخبز في البيوت المنهكة.

كنا نُصارع الحقيقة، لم يعُد بيتُنا آمنًا! القرار الذي كسرنا جميعًا، كان أن نتركه.

تركنا الغرف التي شهدت ضحكات لانا الأولى، ونافذتها الصغيرة التي كانت تُطلّ منها على الدنيا كل صباح، بحثًا عن طيرٍ أو نور.

كان وداع البيت أصعب مما تصورت؛ شعرتُ وكأنّ شيئًا اقتُلع من روحي، وكأنّي أترك خلفي حياةً كاملة، لا جدرانًا فقط.

سِرنا في الطرقات ونحن نلتفت وراءنا، كأنّ النظر إلى البيت للمرة الأخيرة كان واجبًا، أو صلاة وداع.

وصلنا إلى بيتٍ غريب! لا يُشبهنا، لا جدرانه تعرفنا، ولا أرضه تحفظ وقع أقدامنا.

لم يكن فيه فراش، إلا قطعة بالكاد تسع لانا، وأنا.

وأنا كنتُ لا أبحث عن راحة، بل عن بقعة آمنة تضع فيها طفلتي رأسها دون أن تُمطرها شظايا السماء، كان المكان باردًا، قاسيًا، جافًا، ومع كلّ ذلك، كنت أفرش روحي لها، أمدّ ابتسامتي على وجهي، كي لا ترى انكساري.

في أول ليلة هناك، جلستُ على الأرض، وضعت لانا في حضني، غطّيتُها قدر استطاعتي، وغنيت لها كما أفعل دائمًا.

لكن هذه المرّة، كانت الأغنية ترتجف من بين شفاهي، وكانت الدموع تتسلّل من عينيّ دون إذن.

لانا كانت تنظر حولها بدهشة، تسألني:

"ماما وين الدبدوب وين اللعبة؟"

فأضمها بقوة، وأهمس:

"كل شيء راح يرجع، المهم إحنا مع بعض."

في ذلك البيت العاري من الأثاث، كنتُ أنا فراشها، غطاؤها، وعالمها الآمن، ولم أكن أعرف هل كنتُ أُطمئنها، أم أُطمئن نفسي.

والد لانا كان يحاول أن يبدو قويًا، لكنّي كنت أقرأ الذعر في عينيه، لم يكن خائفًا على نفسه، بل علينا.

كأن الحرب لم تُفزعنا بصوتها فحسب، بل بمستقبلها المجهول، ذلك الذي لا نستطيع أن نؤمّن فيه وجبةً أو مأوى، ولا حتى لعبة صغيرة تُلهي بها لانا قلبها الصغير.

رغم كلّ شيء، كنت أحاول أن أُبقي لانا في دائرة الضوء...
كنت أُغنّي لها في المساء، أُداعب شعرها، أضحك فجأة كي تضحك، وأصطنع الطمأنينة وكأنّني لم أسمع دويَّ الصاروخ قبل دقائق.
كنت أقول لنفسي: لا ذنب لها، هي لا تعرف الحرب، فلماذا تُؤذى بها؟
كنتُ أُخفي ارتجافة يدي، وأطوي خوف الليل في صدري، كي لا تشعر بشيء، كنتُ أحاول أن أزرع لها بيتًا في صدري حين ضاق بنا المكان.
أما الطعام، فقد صار شحيحًا، نعدُّ اللقمة، ونُقسّم الرغيف، ونحمل الماء كمن يحمل كنزًا.
ومع ذلك، كنت إذا أطعمْتُها، أُخفي جوعي، وإذا لبستْ، أُخفي بردي.
وإذا نامتْ، أُخفي دموعي، كانت لانا تلهو بما تملك من براءة، تسألني أحيانًا:

"ليش ما نرجع بيتنا؟"

فأُجيبها بقبلةٍ على جبينها، وأقول:

"سنرجع يا لانا، حين تهدأ السماء"

لكن قلبي كان يعلم، أنّ في الحروب لا يعود شيء كما كان، لا البيوت، ولا الأوطان، ولا حتى الأمهات!
كان الشهر السادس عشر من عمر لانا شاهدًا على نموّها المتسارع، وكأنها تسابق الحرب في خطواتها، تبحث عن الحياة في عالمٍ تتساقط فيه الأرواح

كالأوراق اليابسة، كانت تنضج، وكان قلبي ينمو معها، رغم أن كلّ ما حولنا يشي بالدمار.

نزحنا إلى ما سُمّيت بـ"المناطق الإنسانية"...

وما كانت إنسانية قط. كانت أماكن بلا روح، بلا أمان، لا تزيد عن كونها رقع نجونا فيها من الموت، لكننا لم ننجُ من الحزن، من القصف.

حاولنا أن نلتمّ نحن العائلة في مكانٍ واحد، علّ القرب يُخفّف من هول ما نراه، لكن أهل والد لانا رفضوا الرحيل، تمسّكوا بمنازلهم، وكأنهم يعرفون أن النزوح لا يحمل النجاة دومًا.

ومع كل ذلك، كنت أحاول أن أُؤمّن لِلانا حياة تشبه الأطفال، كنت أضحك رغم اختناق صدري، وأُغني رغم ارتجاف صوتي، وألاعبها رغم أنّ يدي ترتجف من الخوف، كنتُ أُخفي الحرب داخل قلبي، كي لا تراها في عيني.

وفي إحدى ليالي الشهر، تحديدًا في الساعة الحادية عشرة، كانت الدنيا ساكنة، لا صوت فيها سوى هدير الصواريخ من بعيد.

رنّ هاتفي! نظرت إلى الشاشة، وتردّدت، قلبي ارتجف، وكأنّه يعرف أنّ الاتصال لن يحمل خيرًا.

كان خالي.

رددت، فسمعت صوته مختنقًا بالبكاء، وخلفه أصوات إسعاف وصراخ.

قالها بجملة واحدة سقطت على روحي كالصاعقة:

"البيت راح، العائلة كلها استُشهدت."

تجمّدت، حاولت أن أستوعب، قلت:

"لا... لا يا خالو احكيلي إنكم بخير."

لكن الحواجز بيننا، والمجزرة ابتلعتهم.

مئة وخمسون شهيدًا من عائلتي في ليلة واحدة.

بدأ يعدّ لي، واحدًا تلو الآخر:

خالتي، وزوجها، وابنتهما، استشهدوا.

ابنة عمتي خرجت من تحت الركام، لكن زوجها وأطفالها الثلاثة لم ينجوا.

قريبتي خرجت حيّة من الردم، لكنها فقدت أبناءها الستة، وبقيت وحدها.

أي قلب يستطيع تحمّل هذا الكم من الفقد؟

كيف أُخفّف عن والدتي التي ودّعت أهلها دفعةً واحدة، وأنا لا أقوى على الوقوف؟

رأت لانا كلّ من حولها يبكي، فصمتت بدهشة، كانت طفلة، لكنها أحسّت أنّ الليل مختلف.

ضممتها إليّ، وربّتّ على شعرها، وقلت همسًا:

"أنا معكِ، لا تخافي... كل شيء بخير."

لكنني كنت أعلم، لا شيء سيكون كما كان.

مرّت الأيام ثقيلة، وانقطع الاتصال.

لم أعد أسمع عن أهل أحمد شيئًا، وقد كانوا في شمال غزة، حيث القصف لا يتوقّف.

قلبي قلق، وروحي معلّقة على خبر.

وبعد خمسة أيام... عاد الإرسال.

أسرعت بالاتصال، وتنفّست الصعداء حين سمعت أصواتهم.

كانوا بخير، أحياء، وهذا يكفي في زمن الموت.

لكن الفرَج كان قصيرًا.

بعد ساعاتٍ فقط، وصلني إشعار:

"أنباء عن مجزرة في سوق فراس"

سقط كل شيء من يدي، شهقت! هناك بيتي حيث أهل أحمد فيه! هناك أمّه، إخوته، عائلته كلّها! ركضتُ أبحث عن أي خبر، أي نفي، أي كذبة تُريحني، لكن الحقيقة كانت أقسى من الكوابيس.

أحمد... فقد جميع أهله.

أمه، أخوه، زوجته، ابنته، أخته، اثنين من إخوته، زوجة عمّه، وابنها وابنتها.

تجمّد العالمُ حولي لم يكونوا أهل زوجي فحسب! بل كانوا جزءًا منّي، من ذاكرتي، من وجداني، كانوا أهلي، كانوا وطني الثاني، كان بيتُنا، بيتُ لانا، هو جنّة اللعب والضحكات، هناك عَرَشُها الوردي، وموائد الرسم، وصناديقُ الألعاب التي كان يفوح منها عبق الأيام السعيدة، انهرست روحي تحت الخبر، ولم أجد لنفسي قوّة، ولا عزاء.

لكن كان عليّ أن أبقى واقفة، أن أُبقي على الأمان في عينيّ، كي لا تراه لانا في دموعي، ورغم كلّ ما كان، كنت أحاول أن أُمسك بيد أحمد، أُسنده، أُربّت على قلبه الموجوع بفقدٍ لا يُحتمل.

رأيته يتكسّر بصمت، يتأمّل الفراغ حوله وكأنّ أرواح أحبّته ما زالت تهمس في الزوايا، كان يسكنه وجع لا صوت له، وجفنٌ مثقل بالدمع المكبوت.

كنتُ أقترب منه كلّ مساء، أجلس قربه، وأهمس:

"أعلم أنّ الفقد أكبر من قدرتنا على التحمّل، لكن لانا بحاجة إلى قوتك، أنت ظلّها وسندها، وهي آخر ما تبقّى منكم جميعًا."

كان يصمت، وكنت أسمع في صمته صرخات لم تجد مخرجًا، ودمعًا لم يملك أن يسقط.

وفي خلوتي مع نفسي، كنت أبكي بصمت...

كيف ستنمو لانا دون أن ترى أهل والدها؟

كيف سأُخبرها حين تكبر أن جدّتها كانت تنتظر قدومها لتضمّها بشوق؟

أنّ عمّتها كانت تُحضّر لها الهدايا والثياب، وأنّ عمها كان يشتاق لابتسامتها دون أن يراها؟

كانوا يحبّونها حبًّا جمًّا، وكانوا يتحدّثون عنها كثيرًا، يشتاقون لملامحها، يتخيّلون صوتها، ويتمنّون لقاءها، لكنّ الحرب اختطفتهم قبل أن تلتقي أعينهم بها.

كبرت لانا على أطلال الحنين...

كبرت في حضن أمٍّ تحاول أن تخبّئ عنها قسوة الفقد، وفي ظلّ أبٍ يُكابر الألم لأجلها.

وفي لياليا الصامتة، كنا أنا وأحمد نُحدّث بعضنا عنهم، نذكر أسماءهم واحدًا تلو الآخر، كما لو أننا نحاول أن نُبقيهم أحياء في ذاكرة الكلمات.

كنت أقول له:

"هم لم يرحلوا تمامًا، إنهم يسكنون لانا! في ملامحها، في ضحكتها، في نظرة عينيها، طالما هي على قيد الحياة، فإنّهم ما زالوا معنا."

ثم أُسرّ إلى لانا، وهي نائمة قرب قلبي:

"يا ابنتي، سنحبّك عن كلّ قلبٍ لم يتمكّن من أن يحبّك، سنمنحك من الحنان ضعف ما فُقد، وسنزرع فيكِ من ملامحهم، كي يشعروا بكِ من السماء"

وفي شهرها السابع عشر، كانت لانا تكبر بين يديّ كما تكبر زهرةٌ في قلب العاصفة.

وجهها ما زال يلمع بالنقاء، وضحكتها كانت تحاول أن تنتزع من هذا الخراب نسمة حياة، لكنّ الحرب كانت قد وصلت إلى العظم، تحاصرنا في كل شيء، وتنهش كل لحظة دافئة كنا نحاول أن نصنعها لها.

كنّا لا نزال نازحين، نحمل على أكتافنا بقايا بيتٍ دُمّر، وذكرياتٍ لم تعد تجد مأواها، لم يكن في المكان ما يشبه البيت، لا دفء، ولا خصوصية، ولا فراش يكفي، لكنّي كنت أحتضن لانا كل ليلة وأقول لها:

"هنا صدري وطنكِ، وهنا ستكبرين رغم كل شيء."

أحاول أن أُغنّي لها، أرقص معها بخفة المتعب، أخبّئ من حولها أصوات الصواريخ كي لا تلتصق ذاكرتها بها، وأسرق لها لحظات فرحٍ صغيرة كأنّي أزرع وردة في صحراء. كنت أضحك في وجهها، وأبكي في داخلي، كي لا تشعر بأن هذا العالم قد قرّر أن يسلب منها كل شيء.

يوماً بعد يوم، ازداد الوضع سوءًا؛ لا غاز نطبخ به، ولا كهرباء نشحن بها هواتفنا لنطمئن على من تبقّى من أحبابنا، تحوّل الطهي إلى طقوس بدائية فوق الحطب، والدخان الأسود غلّف ملابسنا، وجدراننا، وحتى رئاتنا.

ومع دخول فصل الحصاد، لم يكن بين أيدينا إلا البطاطا التي صارت قوتنا الوحيد، نسلقها، نشويها، نهرسها حتى بات طعمها يرافقنا في كل لحظة. كانت لانا تجلس إلى جواري، تمسك قطعة البطاطا بيدها الصغيرة وتقول ببراءة:

"ماما، وين اللبن؟ بدي عصير."

يا الله! ما أصعب سؤالها!

أذكر مرة، بعد يومٍ طويل من البحث والركض، عدتُ خالية اليدين، بلا لبن، ولا عصير، ولا حتى عزاء، كانت الشمس تغيب، والبيت غارق في بردٍ لا يرحم.

ركضت لانا نحوي، ورفعت عينيها الصغيرتين وسألتني بصوتٍ خافت

"ماما جبتيلي عصير؟"

احتضنتها، وهمستُ بكلماتٍ لم تكن تليق بحجم خيبتها:

"ما لقيت يا روحي بكرة بجبلك."

لم تُجبني، لم تبكِ، فقط سكنت في حضني، بصمتٍ كان أوجع من كل دموع العالم، وكأنّها أدركت، رغم صغر سنّها، أن الأمنيات لا تُلبّى دائمًا، وأنّ ماما تحاول، لكنها تُحارب ما لا يُحارَب.

طفلة بعمر الوعي الأول للطعام، عمر الذوق والرغبة، عمر الاستكشاف واللهفة، لا تجد سوى البطاطا والماء. نظرتُ في عينيها ولم أجد ما أقوله، غير حضنٍ يشبه الاعتذار.

الحليب لم يكن متوفرًا، والحفاضات أصبحت كالحلم، أبحث عنها في كل زاوية، أركض من مكانٍ إلى آخر، أسأل الناس، وأعود صفر اليدين.

وحتى حين كنت أجده، كنت أضطر لتوفيره على حساب حاجاتي، فقط لأحفظ لها شيئًا من كرامة الطفولة.

كنت مقهورة، مقهورة لحد الانكسار! لم أكن أريد لها حياة كهذه، لانا لم تُخلَق لتأكل ما تيسّر، ولا لتنام فوق بطانيات ممزقة، ولا لتكبر وسط

القذائف والنزوح. كنت أراها تحبو نحو الحياة، والحياة تسحب البساط من تحتها، ولا أملك من أمري شيئًا سوى أن أقاوم، وأحاول، وأُحبّها أكثر وأكثر.

كنت أشعر أن كل ما حولنا يتحوّل إلى رماد، إلا حضني...

حضني كان ينجو في كل مرة، يحملها، ويخبّئها من صوت الموت.

كنت أتمسك بها كما يتمسك الغريق بخشبة في بحرٍ هائج، وأدعو الله كل ليلة:

"أبقِها لي، فقط أبقِها."

كبرت لانا وسط الحصار، وسط الخوف، وسط انقطاع الحليب وغياب الفاكهة واللبن والعصائر، لكنها كانت تكبر في قلبي كما تكبر المعجزة، تحمل ابتسامتها رغم كل شيء، وتصنع من صمتنا حكاية لا تُنسى.

بدأ شهرٌ جديد من حياة لانا، الشهر الثامن عشر...

وكانت الحياة رغم قسوتها، تُنبت في قلبي زهرة أمل اسمها "لانا".

في هذا الشهر، كان موعد إبرة السنة والنصف، كنتُ متحمّسة لها وكأنها طقس من طقوس الحياة، دليل على أن لانا ما زالت تكبر، ما زالت تثبت وجودها في هذا العالم المتصدّع.

رغم الحرب، رغم الخراب، كانت لانا تكبر، وتُدهش الجميع بجمالها، بعذوبتها، وبحضورها الذي يُشبه النسيم في قيظ النزوح.

كانت محور الكون لمن حولها؛ تلعب في حضن والدها، تضحك مع جدّتها، وتتدلّل على خالها، وكل من رآها لا بد أن يبتسم.

حتى أولئك الذين طحنهم الحزن، كانت لانا تمنحهم لحظة سلام! لحظة نسيان.

أصبح صوتها أوضح، وكلماتها أكثر ترتيبًا، صارت تناديني "ماما" بلهفة أكبر، وتلحق بي أينما ذهبت، كأنها تشعر أنني وحدي عالمها الآمن، وأن حضني هو الوطن الحقيقي الذي لا تُقصف جدرانه، كانت تنام على صدري، وأحكي لها حكاية من زمن السلام، أخبرها عن بيتها الحقيقي، عن غرفتها الملوّنة، عن ألعابها التي ما زالت تحت الأنقاض، وعن أهل والدها الذين لطالما انتظروا رؤيتها، لكنهم رحلوا دون وداع.

وفي كل مرة تسألني:

ــ "ماما... شو ماله بابا "

أبتسم بحزن، وأجيبها:

ــ "بابا خايف عليكِ، بس هو بحبك كتير."

فتضمّني وتقول:

ــ "وأنا بحبه كتيييير."

كأنها كانت تدرك، دون أن تدري، عمق الحزن الذي نحمله في صدورنا

في عالمٍ منهك، كانت هي الطفلة الأنيقة، ذات الرائحة العطرة التي كنت أصنعها من بقايا عطري القديم، أضعه على رقبتها ويديها الصغيرة، وكأنني أزيّن الحياة بها.

كنت أعتني بكل تفصيلة فيها، بملابسها، بشعرها، بنظافتها، وكأنني أقول للعالم:

"هذه الطفلة ستبقى جميلة رغم كل شيء".

وكانت، بالفعل، الأجمل، تخطف القلوب كلّما مشت، حتى في أرض تغمرها الدماء.

حين اقترب موعد الإبرة، بحثت عن المسكنات النادرة، ونجحت في تأمين القليل منها، كنت أعلم أن هذه الإبرة متعبة للأطفال، لكن لانا كانت قوية، قوية بما يكفي لأن تبتسم بعد الدموع، وأن تعانقني بعدها كأنها تقول:

"أنا بخير، ماما."

وعدتُ أنفاسي، وشكرت الله، وعدّتُ يومًا آخر بسلام.

لكن خلف هذه اللحظات، كان كل شيء حولنا يتغير بسرعة! أراضي البطاطا التي كانت في السابق مصدرًا لسدّ الجوع، تحوّلت إلى مخيمات نزوح. الخيام زحفت على الحقول، والأمل صار شحيحًا، مثل الحليب، مثل الغاز، مثل الكلام، لم أعد أملك إلا حضني، أضع فيه لانا، وأغنّي لها أغنية هادئة، ثم أخبرها أن كل ما تمرّ به هو مؤقت، وأن الأمل لا يموت.

رمضاننا ..عيدنا..ولانا

رمضاننا ..عيدنا..ولانا

كبرت لانا، وكبر معها الألم، لكنها بقيت، وسط كل شيء، تحمل النور في عينيها، كأنها خُلقت لتقول لي:

"ما دمتُ هنا، فالحياة لم تنتهِ بعد."

ثم بدأ الشهر التاسع عشر من حياة لانا، لكن الأيام لم تحمل معها انفراجًا، بل تتابعت المتاعب كأنها لا تعرف نهاية.

لا زلنا في قلب الحرب، في أرضٍ لم يبقَ فيها من الطمأنينة سوى أنفاسنا المتقطعة وأحضاننا لبعضنا بعضًا.

كبرت لانا، كبرت رغمًا عن النزوح، رغم الخوف، رغم الصواريخ التي لا تكفّ عن التحليق فوق رؤوسنا. كانت تنمو في حضن العائلة، وكان وجودها، كعادته، نورًا يضيء وجوهنا ويهوّن علينا قسوة الحياة. كانت كأنها قلبنا النابض، الأمل الوحيد الذي نتمسّك به وسط ركام لا يرحم.

وفي خضمّ هذا الألم، دخل رمضان...

ذلك الشهر الذي كنّا ننتظره دومًا لنشعر بالسكينة، بالروح، بالدفء، لكنه هذا العام جاء مثقلاً بالحزن، كنتُ أُخفي دمعتي عن لانا، لكن قلبي كان ينزف! كيف نعيش رمضان ونحن تحت الحصار، نازحين، محرومين من

كل شيء؟ كيف نصوم على أصوات الانفجارات ونفطر على شُربة ماء بالكاد وجدناها؟

كنا نصحو وننام على أصوات الصواريخ، رمضاننا بات يشبه لياليا الكالحة، إلا من صوت دعائي الخافت وأنا أضمّ لانا إلى صدري وأدعو: "يا رب، احمِها، وارزقها حياة تشبه ضحكتها".

أما التراويح... فكانت صلاة مختلفة.

نُصلّيها على رُكام من الحنين، نُصلّيها على وقع القذائف، وعلى بقايا السجّادات التي لم تُحرق، كان الركوع خشوعًا، والسجود بكاءً، والدعاء ممتدًا إلى السماء، لعلّ الليل ينقشع ومعه هذا الألم.

في كل ركعة، كنت أدعو لِلانا، أن يحفظها الله، أن تكبر وتنسى هذا الدمار، أن ترى من الدنيا وجهها الجميل.

وكنت أرمقها وهي واقفة بجانبي تُقلّدني، ترفع يديها مثلي، وتُتمتم ببراءتها، وكأنها تُصلّي أيضًا بطريقتها الصغيرة

لكن، وفي وسط هذا القحط، جاء الخبر...

المعبر فُتح! والمساعدات بدأت تدخل إلى جنوب القطاع.

وبدأنا نحصل على بعض المواد التي تُسندنا في صيامنا.

كأن الحياة تتسلل إلينا بخجل، بعد طول جفاف.

فرحتُ، ولكن قلبي ظلّ معلقًا بشمال القطاع...

هناك، حيث الأهل والأحباب، حيث الجوع يفترس من لا صوت لهم ولا نداء يسمعهم.

وفي يومٍ هادئ نسبيًا، خرجتُ مع لانا لتمشية صغيرة، كانت خطواتها الصغيرة بجانبي تمنحني شيئًا من الراحة.

توقّفت فجأة، شدّت على يدي، وقالت بصوتها الطفوليّ الجميل:

"ماما... نمن!"

لم أفهم! انحنيتُ إلى مستواها، نظرت في عينيها، فبدأت تُشير إلى محل صغير، وهناك رأيت ما كانت تقصده.

كان اللبن.

كانت لانا تحاول نطق "لبن"، لكن الطفلة التي حُرمت من طعم الحليب لأشهر نادته بطريقتها، بكلماتها التي لم تكتمل، لكنها اخترقت قلبي كأنها صلاة.

يا الله... كم فرحتُ حينها.

تألقت عيناها بلمعة لم أرَ مثلها من قبل، كأنها رأت الحلم أمامها يتحقق.

لم أتردد، اشتريت لها اللبن، رغم أن سعره كان يُرهق قلبي وجيبي معًا، لكن فرحة لانا كانت أثمن من كل ما في العالم.

جلست على الرصيف، وضعت القنينة الصغيرة في يدها، وراقبتها تشربها كأنها تشرب الحياة نفسها.

كان مشهدًا بسيطًا! لكنه لي أنا، كان معجزة.

نظرتُ إلى السماء...

رمضان هذا العام مختلف، نعم، لكنه يحمل شيئًا من الرحمة، ولو تأخّر كثيرًا، في هذا الشهر، علّمتني لانا درسًا لن أنساه:

أن الطمأنينة يمكن أن تولد بين الخيام، وأن صوت الضحكة الصافية أقوى من صوت الطائرات.

كانت تقول لي بكامل طفولتها:

"ماما، إحنا بخير."

فأبتسم، وأقول في سري:

"لو كنتِ بخير، فالعالم كله لا يهم."

لم يكن من السهل أن أكون أمًّا في زمن الحرب، لا طعام كافٍ، لا دواء، لا ملابس دافئة، ولا أمان، لكنني كنت أحاول أن أخلق لها عالمًا صغيرًا، خياليًّا، تُحِب فيه الحياة ولو كانت على شفير الموت.

كنت أغنّي لها حين يقصف الاحتلال، كي لا تسمع الرعب بل تسمع صوتي

كنت أخبئها في حضني كلما اهتزّ المكان، وأهمس في أذنها

"أنا معكِ، وكل شيء سيكون بخير"

كنتُ أُسجّل في مفكرتي لحظات يومها:

كيف أمسكتُ يدها حين تعثّرت، كيف نامت على كتفي في عصرٍ مشحون، كيف قبّلت خدّي حين بكيتُ بصمت في الليل.

لم تكن تعرف ما يحدث، لكنها كانت تعرف أنها أمانٌ يمشي، وفرحٌ صغير وسط خرابٍ كبير.

شهرها التاسع عشر!

هو فصلٌ علّمني كيف تنبت الزهرة في التراب القاسي؟ وكيف يظل الضوء موجودًا، ولو انطفأت الكهرباء؟!

انتهى رمضان في تلك السنة كما ينتهي الندى على وردة في صباحٍ قاسٍ، بهدوء، وامتنان.

كنّا ما زلنا على قيد الحياة، وهذه لوحدها كانت نعمة تُقال لها "الحمد لله" ألف مرة.

جاء العيد.

في فجره، صحوتُ على صوت التكبيرات يتسرّب من بين الخيام، ناعمًا كأنّه يحمل رحمة ما وسط القسوة، تكبيراتُ الأطفال كانت مختلفة، مكسوّة ببراءة وإصرار، كانوا يكبّرون، لا لأنهم أدركوا كل معاني العيد، بل لأنهم تعلّموا أن الشعائر تبقينا أحياء من الداخل.

خرجنا من خيمتنا الصغيرة، كانت لانا في حضني، تلفّ ذراعيها حول عنقي بنعاس العيد الأول.

لبّستها أجمل ما عندي، فستان بلون السما، وزينة بسيطة صنعتها لها من شريطة قديمة.

كنت أغنّي لها وأنا أُلبسها:

"هادا عيد يا ماما، لازم ننبسط فيه، حتى لو الدنيا حوالينا مقلوبة."

نزلنا إلى الشارع الرملي، وهناك بدأنا نوزّع الشوكولاتة على الأطفال.

كانت لانا تمشي بجانبي، تضحك، تمد يدها الصغيرة وتقول:

"خُدا!"

لم تكن توزّع حلوى فقط! بل كانت توزّع دفء، حب، فرح ناقص تُحاول هي أن تكمله.

كنت أراها بعينيّ الأم المندهشة...

طفلة لم تبلغ السنتين، ومع ذلك تحمل في روحها الحنان كله.

أعطت بسكويتها لطفلٍ آخر، وضحكت حين قبّل خدها، ثم ركضت إليّ لتقول لي بفخر:

"ماما، هو مبسوط!"

حاولت أن أفرحها، بكل ما أملك.

بالغت في الحكايات، ضحكتُ أكثر مما في قلبي، خبّأتُ الحرب في صدري كي لا تصل لعينيها.

لم تكد تمضي أيّام قليلة حتى عاد صوت الطائرات ليشقّ السكون، كأنّه يصرّ على أن يذكّرنا بأننا لسنا في مكانٍ آمن، كان القصف قريبًا! قريبًا جدًا هذه المرة.

أذكر أني وضعت يدي فوق أذنَي لانا في إحدى الليالي حين اهتزّت الأرض تحتنا، وقلتُ لها بصوتٍ مكسور وأنا أرتجف:

" ما تخافي ماما جنبك ما رح يصير شي، ما رح يصير شي، ما رح يصير شي"
لكنّ الحقيقة أنني كنت أنا الخائفة، كنت أنا من تحتاج أن تطمئن.
الخيمة، التي كانت ممرّ العيد قبل أيام، تحوّلت إلى قوقعة ضيقة من القلق.
لم أعد أنام إلا متقطّعة، وعيناي على وجهها، أراقب أنفاسها، أخاف أن تختنق من الدخان أو تبرد من الهواء الليلي القارس.
لم أعد أطلب شيئًا من الدنيا، فقط أن تمر الليلة القادمة بسلام.
لكن العيد كان استراحة قصيرة فقط... كأنّ السماء قررت أن تمنحنا شهيقًا قبل أن تعاود الضغط علينا بكل ثقلها.
وفي نهاية هذا الشهر، عرفتُ شيئًا لم تقله لي الكتب، ولم يكتبه التاريخ:
أن الأم التي تحمل طفلها وسط القصف، لا تحتاج درعًا ولا سلاحًا! يكفيها قلبها، وأن الطفلة التي تضحك رغم الحرب، ليست مجرد نجاة...
بل معجزة تمشي على الأرض بدأت لانا شهرًا جديد وكانت تكبر أمام عيني في زمنٍ يرفض أن يكبر معه شيءٌ سوى الدمار.
ورغم كل شيءٍ حولي، رغم الحرب والفقد والنزوح، بقيتُ متمسّكةً برسالةٍ في قلبي:
أن أنشئ ابنتي على ما يُرضي الله، أن أزرع في قلبها نورًا لا تطفئه قذيفة، ولا تهزمه المجاعة.

كنت أعلمها القرآن، وقد أتمّت حفظ سورة الفاتحة والإخلاص، وأسماء الله الحسنى، خمسًا منها كانت ترددها بصوتٍ يشبه الندى، وملامحها تنطق بالفخر.

كنت أُعلّمها أداب الطعام، كيف تبدأ ببسم الله، كيف تشكر بعد أن تنتهي.

أُحدّثها عن الاحترام، عن الفرق بين الخطأ والصواب، وعن الكلمات الطيبة التي تصنع الفرح في قلب الآخر.

كانت تستجيب لي ببراعةٍ تُدهشني.

ذات مرة كسرت لانا صحنًا زجاجيًا، نظرتُ إليها وسألتها بهدوء:

"مين كسر الصحن يا بوبو؟"

رفعت عينيها بثقة طفولية وقالت: "أنا."

ابتسمتُ لها وقلت:

"شطورة يا بوبو بس ما تمسكيه تاني، يروحي بتجرحي حالك."

أومأت برأسها كأنها تدرك خطورة الموقف، وتعدني ألا تكرّر الخطأ.

كل ما كنتُ أزرعه فيها في الشهور الماضية، بدأت أرى ثماره تتفتح.

كانت تحفظ أسماء كل من في العائلة، وكانت محور الجلسات.

إذا سألناها عن اسم والدها، ردّت بفخر: "أحمد."

وإذا سألناها عن أمّها، تبتسم وتقول: "إسراء... روحي."

نسألها عن جدها: "أكرم."

كنا نحاول أن نُربكها، أن نلعب معها في الإجابات، لكنها كانت تُفاجئنا بذكائها، وتضحك حين تكتشف محاولاتنا.

لكن وسط هذه الطفولة الدافئة اشتدّت الحرب، في هذا الشهر، قُصف معبر رفح.

صُعقنا بالخبر، كان كأن الأمل الأخير قد انهار، اضطررنا للنزوح مجددًا، هذه المرة إلى مكان أبعد، أبرد، وأقسى.

كانت الأرض أقسى من قبل، والسماء أشدّ قسوة، لم يكن النزوح شيئًا عابرًا! كان خلعًا قاسيًا من الجذور، مرّة بعد مرّة.

كنا نحمل ما تبقى من حياتنا فوق أكتافنا، بطانيات، أكياس، طنجرة مفلولة، وبعض الطعام... ولانا.

دائمًا لانا.

أغلى ما أملك، وأخفّ ما في حضني.

الشوارع كانت مكتظّة بالخيام، بالبكاء، بالصمت، بالوجوه التي لم تعد تشبه أصحابها.

كل شيء مزدحم إلا الأمل...

الأمل كان يضيق، يهرب، يذوب كأن لا مكان له بين هذا الركام.

وفي أحد الأيام، قررنا أن نغادر قبل بزوغ الشمس، صلّينا الفجر، وجمعنا حاجياتنا على عجل، نُسابق أصوات الانفجارات، نُخبئ خوفنا في الدعاء.

كنّا نمشي كأننا في حلمٍ ثقيل...

أنا أحمل لانا، وهي تنظر حولها بعينين واسعتين، لا تعرف إن كان هذا الطريق بداية جديدة أم هاوية أخرى.

لم يكن في الطريق ماء، ولا طعام، ولا ظلّ، كان في كل شيء شحّ...

إلا قلبي، كان ممتلئًا بها.

بصوتها، بأنفاسها، بضحكتها التي ما زالت تخرج رغم كل شيء، وتقول لي دون كلام:

"أنا بخير، ماما... بس خليكِ معي."

مشينا في يومٍ لا يُشبه الأيام، في تعب لا يشرحه الكلام، ومع كل خطوة، كنت أُتمتم في قلبي:

"يا رب، الطريق طويل، والروح مرهقة، لكنّي أمسك بها، فامنحني القوّة ما دمتُ أحتضن الحياة بين ذراعي.

القصف لم يهدأ، والرعب كان يُلاحقنا من مكان إلى آخر، الوجوه امتلأت بالغبار، والقلوب امتلأت بالخوف، ورغم كل ما يحدث، كنت أضمّ لانا إلى صدري وأحاول أن أختلق لحياتها لونًا غير لون الرماد.

كل ما تمنّيته حينها...

أن تبقى لانا هكذا: طفلة تُردّد آيات من كتاب الله، تضحك حين تحفظ اسم أحدٍ منا، وتحمل في قلبها أملًا يُعنينا في عزّ المحن.

وهكذا انتهى الشهر الواحد والعشرون...

لم يأتِ معه فرج، ولم يحمل بشرى، لكنه ترك لي شيئًا أعظم! تركني أنظر إلى طفلتي، وأقول:

"ما دام وجهها أمامي، فأنا ما زلت أتنفس"

بدأت لانا شهرها الثاني والعشرين، وكأن الأيام تُسرِع بها نحو النضج.

كنت أراها تكبر يومًا بعد يوم، ويكبر معها قلبي، حمدًا لله على كل لحظة.

لم أتوانَ عن تعليمها، رغم كل شيء.

كنت أؤمن أن العلم في هذا العمر يثبت كما يُنقش الحجر، بدأت أُعرّفها على أجزاء الجسد، كنت أسألها: "نانا، وين شعرك؟"

فتلمس رأسها وتقول بثقة: "هيو!"

"وعيونك؟"

"هيها!"

"وأنفك؟"

"هيو!"

كانت نبيهة، سريعة الاستيعاب، كأنها تحفظ كل شيء في قلبها قبل عقلها.

كنت أحاول أحيانًا أن أُربكها، أن أختبرها، لكنها كانت تتفوق عليّ في كل مرة.

تذكُر كل تفصيل صغير، كل جملة قلتها، كل لعبة لعبناها.

كنتُ مبهورة بها! بل مدهوشة! كأن الله أودع فيها نورًا لا يخبو.

وفي أحد الأيام، قالت لي بصوتها العذب:

"ماما... بدي أشرب نتافيه عالبحر!"

ضحكت، ثم دمعت عيوني من الفرحة.

لم أستطع أن أردّ طلبها، رغم أن الحرب مشتعلة من حولنا، ورائحة القصف لا تفارق المكان.

لكنّي قررت: لأجل لانا، سأصنع فرحًا صغيرًا حتى لو في قلب الرماد.

في اليوم التالي، أخذتها إلى البحر...

جلسنا هناك، وحدنا...

أنا وهي فقط، كأن العالم قد غاب واختفى خلف صوت الموج، ضحكنا، تحدّثنا، التقطنا الصور، وتشاركنا نتافيه دافئة.

كانت لانا في تلك اللحظات ليست فقط طفلتي...

كانت ابنتي، وصديقتي، وأختي، وأنسي في هذا الخراب الكبير.

كان ذلك المشوار القصير إلى البحر هو أجمل رحلة في حياتي، رغم أن السماء فوقنا ملبدة بالخطر.

مشينا وضحكنا كأننا نقتنص الحياة من بين أنياب الموت.

وكانت لانا -وحدها- كافية لتُشعرني أنني أعيش.

في تلك الأيام، كان والد لانا، أحمد، يعمل في موقعه المعتاد.

لكن ذات ظهر، دوّت السماء بانفجارات عنيفة، صواريخ، طائرات، طنين كوادكابتر لا يتوقف...

قلبي انقبض.

اتصلت به فورًا وقلت: "أحمد، وينك؟"

ردّ بصوت مختنق: "إحنا بنموت...ادعيلي، اسراء."

انخلع قلبي.

كان في منطقةٍ تقتحمها الدبابات، والدمار فيها يُطمر كل شيء.

يحاول الركض، البحث عن مخرج، لكن لا مخرج من الجحيم إلا بستر من الله.

أغلقت الهاتف وأنا أرتجف، ضممت لانا إلى صدري بقوة، كأن حضنها يحميني من الجنون، مرّت ساعات من الانتظار، لا صوت، لا خبر...

فقط قلبي الذي يطرق على أضلعي بألم، وبعد ما هدأ كل شيء... رن الهاتف.

كان هو.

قال بصوت متعب: "أنا بخير، الحمد لله."

وبكيت... بكيت بدموع كانت محبوسة في صدري منذ زمن.

كان عيد الأضحى قد حلّ علينا ونحن نازحون، بعيدين عن أمان بيوتنا، غارقين في بحر من الذكريات، الشوارع كانت خالية، والأزقة التي اعتدنا السير فيها أصبحت مجرد أطلال تئن تحت وطأة الحرب، لكن رغم كل هذا، كانت لانا هي النور الذي يضيء عتمتنا، هي البلسم الذي يداوي جراحنا.

في ذلك العيد، كان السكون يلف المكان، إلا من أصوات المدافع البعيدة وصيحات الأطفال الذين فقدوا براءتهم! كانت هناك رائحة الدماء في الهواء، وحباتها الطاهرة التي تزين أرض وطننا التي كانت تحلم بالحياة، لكنها الآن تغرق في الظلام! رغم ذلك، كانت لانا، بابتسامتها الصغيرة، تهون كل شيء.

كانت تملأ الدنيا ضحكًا، وتشعرني أن الحياة لا تزال مستمرة في داخلنا رغم كل ما يجري حولنا.

كنت أراها، وهي تلبس ثوب العيد البسيط الذي جلبته لها في أحد الأيام القليلة التي خرجنا فيها، وهي تحتفل كما لو أن كل شيء كان كما كان من قبل، كانت تضحك، وتلعب بين يديّ، وتحاول أن تزين لنا المكان بورودها الخيالية التي كانت تبتكرها من أي شيء حولها.

"ماما، العيد حلو، أليس كذلك؟"

قالتها بصوتها البريء، وهي تنظر إليّ بعينيها اللتين تعكسان البراءة في عالم لم يعد يعرف سوى القسوة.

وابتسمتُ رغم الألم، رغم الحزن الذي كان يطوق قلبي، لانا، في قلب هذا العيد الذي تذوق مرارته، كانت هي الأمل، هي الذكرى الوحيدة التي لا تُمحى، كانت تُعيد لنا معنى الحياة وسط هذا الخراب، تعلمنا كيف نعيش رغم كل شيء.

في تلك اللحظات، كان عيد الأضحى ليس مجرد مناسبة دينية، بل كان رمزًا للحياة التي لا تستسلم، رغم الدماء التي كانت تسيل في كل مكان.

كان عيدًا يحتفل فيه قلبنا بالأمل، رغم أن العالم حولنا كان يغرق في الظلام

كنا نعيش على بقايا المساعدات، نقف في طوابير طويلة للحصول على ربطة خبز أو ماء عذب، وفي الليل، كان صوت القصف أقرب إلينا من صوت الأمان.

كل شيء من حولي ينهار، لكنّي كنت أحاول أن لا أنهار أمام لانا.

كنت أحضنها، أُشغلها باللعب، بالحفظ، بالأغاني، كي لا تسمع صوت الحرب كاملًا.

في كل مرة أنظر إليها وهي تلعب، أتمزق! هي لا تعرف أننا لا نملك مكانًا نبكي فيه بحرّية، ولا نملك حتى سقفًا نعدّ تحته أحلامنا الصغيرة.

كل ما نملكه هو الأمل...

وأنا كنت أتشبّث به لأجلها، وحدها.

وهكذا انتهى الشهر الثاني والعشرون...

بضحكةٍ على البحر، وخوفٍ على طرف الموت، وأملٍ لا يموت.

كنت أقول لنفسي كل ليلة:

"طالما أنا، ولانا، وأحمد ما زلنا معًا، فسنصمد، حتى لو العالم كله انهار حولنا."

****

ضـوء في وسـط الـعـتـمـة

ضوء في وسط العتمة

رغم استمرار الحرب وتوحّش القصف، كانت لانا تكبر، وتزهر بين الرماد كزهرة عنيدة تأبى الذبول.

كنّا ما نزال نعيش المعاناة، نمضي أيّامنا بين الخيام والغارات، لكنّني كنتُ مصرّة على أن يبقى لحياتها نكهة مختلفة، أن أزرع في قلبها الأمل، وفي عقلها نورًا لا تطفئه الصواريخ.

بدأت لانا شهرها الجديد بابتسامة ملأت قلبي أملاً، وبخطى واثقة نحو النضج، كانت تردد الأعداد باللغة العربية، واحد، اثنان، ثلاثة... حتى تصل إلى العشرة، وتضحك بعدها بصوتها العذب قائلة:

"هيبيي!"

وكأنها تحتفل بإنجاز صغير في عالمها الكبير.

علمتها سورة "الناس"، فحفظتها بتركيز غريب على طفلة في عمرها، ورددتها بصوت خاشع كأنها تفقه المعنى، وأنا أتابعها بانبهار وفخر، أشعر بأن كل دقيقة من تعبي لم تذهب سدى.

في إحدى المرات، قلت لها على سبيل المزاح:

"بابا عاطل!"

فنظرت إليّ بعينين تلمعان ببراءة الطفولة وقالت بثقة:

"ماما خطأ... بابا حلو!"

تلك الجملة البسيطة زلزلتني من الداخل، فقد أيقنت حينها أن تعليمي لها بدأ يُثمر، وأن زرعي في قلبها الصغير بدأ يورق صدقًا وفهمًا.

كانت لانا محط أنظار العائلة وبهجتهم اليومية، كل يوم بعد صلاة المغرب، كنت أُلبسها أجمل ما لدي، فتذهب مع والدها إلى مجلس العائلة، كانت تملأ المجلس نورًا بصوتها وضحكاتها، تجيب بحماسة على أسئلة ستها وسيدها وخالها وخالتها:

"وين عينك يا لانا؟"

فتشير بدقة

"عدّي يا لانا!"

فتعد بثقة، ثم تضحك بطفولية تنسيهم أوجاع الحرب.

في إحدى الليالي، تسللت لانا إلى فراشي، شدّت الغطاء وهمست في أذني:

"ماما قومي نصلي، هيو أذّن... الله أكبر!"

لم أتمالك دموعي، قبّلت جبينها، وقلت في نفسي:

"الله أكبر فعلاً، إنكِ يا لانا نور قلبي وسط هذا الظلام."

لم تكن لانا طفلة عادية، كانت رغم صغر سنها تشبه مرآة لما حولها؛ تحفظ كل وجه، وتقلّد كل حركة، وتردّد دعواتنا بعد كل صلاة بصوتها الرقيق كنسيم الفجر.

كنت أراها، فأتذكّر أنّ هناك غدًا، وأنّ الحياة لا تزال تتنفّس في تفاصيلها الصغيرة، في طريقة نطقها لاسمي، في ضحكتها حين أرش عطرها المفضّل، في خطواتها وهي تلعب أمام الخيمة وتجمع الأحجار الصغيرة كأنّها كنوز من زمن الأمان المفقود.

كانت لانا، حرفيًّا، محور القلب، كل العائلة كانت تدور في فلكها، حين تمرّ تتوقّف الأحاديث، ويبدأ الجميع بالضحك واللعب والنداء باسمها.

كانت تفهم وتستوعب وتنظر لنا بفهم عميق، وكأنها تعلم حجم ما نخفيه من وجع خلف ابتساماتنا.

وفي هذا الشهر أيضًا، سقطت قذائف قريبة من مكان نزوحنا، كأنّها أرادت أن تذكّرنا بأن لا ملاذ من الحرب، وأن لا مكان آمن حقًّا، ساد الصمت حينها، ثم البكاء، ثم هرولة الناس لجمع ما تبقى من الأمان، احتضنتُ لانا بقوة، وهمستُ في أذنها:

"طالما أنتِ بخير... فأنا بخير."

كان الليل طويلًا، لكنه كان أكثر دفئًا بوجودها، كنتُ أتأمل وجهها وهي نائمة، وأردد في سري:

"يا رب، احفظها لي، فهي النور الوحيد الذي لم تطفئه الحرب"

وهكذا، مضى شهرٌ آخر من عمر لانا، لم يحمل معه استقرارًا ولا هدنة، لكنه حمل في طيّاته الكثير من التفاصيل الصغيرة التي كانت تُبقي على قلوبنا حيّة.

كبرت لانا شهرًا جديدًا، وازدادت وداعةً وذكاءً، وكأنها تنبت في أرض الصبر والإيمان، تتفتح كزهر برّيّ لا يعرف الانكسار.

رغم الحصار، رغم الجوع، رغم الرعب الكامن في كل لحظة؛ بقيت هي بصيص النور الذي نتمسّك به، بقيت البراءة التي تُداوي وجعنا، والضحكة التي تُرمم قلوبنا.

في زمنٍ فقدنا فيه كل شيء، كانت لانا هي "كل شيء".

كانت طفولتها تذكيرًا دائمًا بأن الحياة، ما دامت تنبض في قلب صغير، لا تزال تستحق أن تُعاش.

آن لشهر أغسطس يقترب، شهرٌ لا يشبه سائر الشهور، ففيه وُلدت لانا، وفيه تغيّر مجرى حياتي إلى الأبد، لم يكن مجرّد تاريخ على رزنامة الأيام، بل كان الموعد الذي نزلت فيه رحمتي إلى الأرض، هدية من السماء، ورفيقة الروح في زمنٍ قاسٍ.

استقبلنا هذا الشهر ونحن ما نزال نحمل على أكتافنا عبء الحرب والنزوح، وبينما كانت السماء تمطر نارًا، كانت لانا تمطر في قلبي نورًا.

كانت توقظني فجراً برقتها المعتادة، تهمس لي:

"ماما، قومي نصلي..."

فأقوم وأتوضأ بنعاسٍ وفرح، فأقوم، وأقف بجانبها، بينما تقوم هي بحركات الصلاة على طريقتها، وتردد ورائي:

"الله أكبر"

فيذوب قلبي حبًا وخشوعًا نتهجد ونناجي رباً نأمل أن يبدّل حالنا.
كنت أُحضّر لها فطورها بيدي كما تحب، نأكله معًا، نضحك، ونتبادل الحديث وكأننا صديقتان قديمتان في صباح عادي من حياة ليست عادية على الإطلاق.
رغم الشح، كنت أراعي تفاصيلها الصغيرة التي تمنح يومي معنى، نجلس وقت الضحى، نحفظ سورًا من القرآن، وأعيد معها الآيات مرارًا، فأجدها تحفظها من المرة الأولى، كانت ذكية بشكل يدهشني، طفلة ولدت لتفهم، وتحب، وتُضيء.
كنتُ أنظر إليها وأتساءل: كيف استطاعت هذه الصغيرة أن تصمد، أن تضحك، أن تحفظ من كتاب الله، بينما نحن الكبار نرتجف من صوت الانفجار؟ كانت لانا تذكرني في كل لحظة أن الحياة ممكنة، وأن الله حين يهب ملاكًا صغيرًا، يرسل معه معنى البقاء.
في هذا الشهر أتمّت حفظ سورة الناس، لتُكمل بذلك ثلاث سور: الفاتحة، الإخلاص، والناس. ومعها حفظت خمسة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنى.
كنت أنظر إليها وأشعر كأنني أزرع وردة في أرض يابسة، ومع ذلك تنبت وتُزهِر، لم تكن لانا تتصرف كطفلة عادية، كانت تتحدث بوعي كبير، تجلس بين الكبار وتشاركهم الحديث، تسأل وترد وتضحكهم، وكأنها تقرأ الوجوه وتفهم الأرواح.

وإن رأت أحدًا حزينًا، اقتربت منه بحنان لم يتعلمه من أحد، وربّتت على يده وقالت بصوتها الرقيق:

"ليش بتعيطي؟ تعيطيش، أنا بحبك."

كانت طفلة تُجبر الخاطر بكلمة، تُداوي الألم بحضن، وتعلّمنا نحن الكبار أن البساطة في الحب كفيلة بإحياء القلب، وكانت إذا ضجّ المكان بالخوف أو الوجع، تهمس:

"ماما، بدي أروح عالبحر."

فأمسك بيدها، ونذهب معًا، نجلس على رماله نراقب الموج، نحاول أن ننسى للحظة مشهد الخيم المنصوبة على الشاطئ، وتفاصيل النزوح التي تنخر الذاكرة.

كانت تنظر إليّ وتقول: "ماما، بتحبيني؟"

أجيبها وأنا أكاد أبكي: "أكيد يا بوبو، انتي روحي".

فتضحك وتقول: "صوريني، اعملي لايك!"

فنلتقط الصور، ونضحك، ونعيش لحظات سلام مؤقتة وسط جحيم طويل.

وجاء يوم ميلادها. لم يكن يوماً عاديًا، رغم كل شيء.

رغم الحرب، ورغم أن المواد قليلة، والطعام نادر، والفرح مستحيل، إلا أنني قررت أن أُقيم لها عيد ميلاد!

أعددت لها كعكة بيدي، بحب، بل بشوق طفلة لفرحة، وصنعت منها شيئًا يشبه الحلم.

اشتريت لها فستانًا ورديًا، وبالونات، وشموعًا صغيرة.

كان الفستان الوردي أكثر من قطعة قماش، كان رمزًا للعناد الجميل في وجه القهر، والشموع الصغيرة لم تكن مجرد زينة، بل كانت إعلانًا بأن لانا ستكبر، وستُطفئ شمعتها الثانية في وجه هذا العالم المجنون، بقوة الحب وحده.

جمعت الأطفال من حولنا، ولمّ الشمل من بقي من العائلة، وتوسطنا الكعكة ونحن نغني بصوتٍ تغلب عليه الدموع:

"سنة حلوة يا جميل... سنة حلوة يا عسل."

وكانت لانا تضحك، تردد كلمات الأغنية، تقول لي وسط الفرح:

"ماما، أنا بحبك كتير، انتي عمري."

كلماتها كانت كفيلة بمحو كل وجع، كل قصف، كل فاجعة ولأنها غالية؛ اشتريت لها قرطًا من الذهب، رغم شحّ المال وصعوبة الظرف، وعدتها أن كل سنة سأهديها ذهبًا، لأنها لا تستحق إلا الثمين، لأنها أثمن من أي شيء.

رغم القصف، ورائحة البارود، وانعدام المأوى، خُيّل إلينا أن هذا اليوم ليس كباقي الأيام، أن لانا أعادت ترتيب الحياة وسط الفوضى، ولو للحظة.

لم تكن لانا مجرد طفلة تكبر، كانت تكبر في قلبي أولًا، وفي عيني كل من يراها. كانت كل كلمة تقولها، كل ابتسامة ترسمها، تحمل ضوءً يكسر عتمة الحرب.

حين أمسكت يدي وقالت بصوتها الرقيق:

"ماما، أنا بحبك كتير"

شعرتُ أن كل الدمار حولنا ذاب، وتحوّل المكان إلى جنة صغيرة فيها دفء وسلام، في أغسطس كبرت لانا، وأشرق وجهها أكثر، لكن في المقابل، كبرت همومي، وثقل قلبي.

اشتدّ الحصار، وازدادت الصواريخ، وصار الخوف يسكن زوايا المكان.

ولم يتبقَّ لي في هذا العالم المتآكل سوى هذه الطفلة التي تحيا فيّ، ويعيش قلبي بها.

وفي نهاية ذاك الشهر...

لم تكن لانا مجرد طفلة كبرت سنة أخرى، كانت لانا معجزة، تُزهر في قلب الدمار، كانت الدفء في عزّ البرد، والنور في أحلك ظلام.

كبرت لانا وكبر معها أملي، بأن الطفولة مهما تمزّقت أطرافها تحت الحرب، ستبقى قادرة أن ترقص فوق الرماد، وتبتسم رغم كل شيء.

لم يكن لي سوى دعاء واحد، كنت أكرره في كل سجدة، في كل نظرة إلى عينيها، في كل لحظة تمسك فيها يدي:

"اللّٰهُمَّ لا تذقني فقدها، فأنا لا أملك بعدها حياة"

هـي لم تكـن هـي

هي لم تكن هي

في تلك الليلة، كان القمر غائبًا كأنّه خائف...
والهواء يمرّ فوق وجهي بخفةٍ لا تشبه النسيم، بل تُشبه يدًا تتسلّل لتوقظ شيئًا نائمًا في داخلي.
نامت لانا إلى جواري، كما اعتادت، يدها الصغيرة متشبثة بأصابعي، لكن دفء أصابعها لم يكن كالمعتاد! كأن روحها كانت تتحسّس الغياب، وكأن بيني وبينها حجابًا خفيفًا من الغموض لا يُرى، ولا يُزال.
شعرتُ بشيءٍ يتسلّل في الغرفة، لا ظلّ له ولا صوت، لكنه ملأ قلبي بالخوف، كنتُ أستشعر اقتراب أمرٍ ما، كأن القدر طرق الباب وهمس لي:
"استعدّي! فالأرض تميد تحت قدميكِ."
لم تكن لانا تبكي، لم تكن مريضة، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق، لكنّ قلبي كان يرتجف! كأن صوتًا من السماء يهمس داخلي:
"ادفني ابتسامتك الليلة جيدًا، فقد تحتاجينها قريبًا."
رأيت طيفًا في المنام، لم يكن حلُمًا، بل علامة، رأيتُ وردةً بيضاء تذبل في يدي، وريش طائرٍ يسقط من السماء بلا جناحين، رأيتُ لانا تناديني من

بعيد، لكنّ صوتها لم يكن صوتها! كان صوتًا عميقًا، حزينًا، كأنّه آتٍ من زمنٍ آخر، صوتٌ لم يُشبهها.

أيقنتُ حينها أن الفجر القادم ليس كباقي الفُجور، وأن في هذا الشهر، ستتغير ملامح الحكاية.

****

ارتجاف الفجر

ارتجاف الفجر

لم تكن شمس سبتمبر قد أشرقت بعد حين بدأت الريح تهمس في أذني، كأنها تنذرني بأن شيئًا ما على وشك الحدوث.

كان الصباح هادئًا بشكل مريب، والسكون الذي خيّم على المكان لم يكن راحة، بل كان يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

في هذا الصباح تحديدًا، استيقظت لانا قبلي، وهو أمر نادر. جاءت تزحف نحوي بخطوات متعثّرة، وعيناها الكبيرتان متعبتان على غير عادتهما، وشفتاها ترتجفان كأنها تبحث عن مأمن.

قالت بصوت خافت، وكأن الوجع يقطّعه:

"ماما... خليكي معي، راسي واوة."

تجمدت للحظة، كأن الكلمات علِقت في الهواء! كانت هذه المرة الأولى التي تعبّر فيها لانا عن ألمها بهذا الشكل، لم تكن تبكي كعادتها عندما تتعب، بل كانت متماسكة، ولكن شيئًا ما في نبرتها جعل الرعب يتسلل إلى قلبي.

نهضت فورًا، حملتها بين ذراعيّ، وبدأت أنظر إلى عينيها، أطرافها، أنفاسها، كانت لا تزال تدركني، تحاول الابتسام، لكنها غير متزنة، لم تعد تستطيع المشي، كأن الأرض ترفض أن تثبّت أقدامها.

أدركت أن الأمر أخطر من كل ما مررنا به في خضم النزوح، والخوف، وصوت الطائرات، كانت لانا تترنح تحت ثقل مرض غامض.

ركضت بها إلى الخارج، والقصف ما زال يزمجر في الأفق، أوقفت سيارة كانت تمرّ من أمامنا بطريقة عشوائية، جلسنا فيها أنا ولانا، وكل شيء بدا كأنه يتسارع، وأصوات الشوارع، الخيام، الصراخ، كلها كانت تتلاشى أمام صوت دقات قلبي التي ارتفعت كطبول حرب.

في الطريق إلى المختبر، كانت لانا تحاول أن تبتسم، قالت لي فجأة، وكأنها تحاول أن تطمئنني:

"ماما... بحبك."

ابتلعت دموعي، لم أرد أن ترى خوفي، رغم أنني كنت أشتعل من الداخل.

وصلنا، أجرت التحاليل، والحمد لله، النتائج لم تظهر شيئًا خطيرًا! لكنّ قلبي لم يطمئن.

عدنا إلى الخيمة، حاولت إطعامها، أعطيتها عصيرها المفضل، جلستُ إلى جوارها، بدأت تغفو في حضني، وبعد دقائق شهقت فجأة، ثم أغمي عليها.

توقفت الدنيا.

صرخت من أعماقي: "لاناااااا!"

اتصلت بأحمد، كنت أرتجف وأنا أقول له:

"أحمد، لانا أغمى عليها! تعال بسرعة!"

ركضنا بها إلى أقرب مشفى، كانت أنفاسي متقطعة، والدموع تسابقني.

في قسم الطوارئ، أخبرنا الطبيب بضرورة عمل صورة مقطعية للدماغ فورًا.

نقلونا بالإسعاف إلى مشفى آخر، قلبت الدنيا رأسًا على عقب وأنا أبحث عن بصيص أمل، عن تفسير، عن رحمة.

دخلنا غرفة التصوير، كانت لانا لا تزال غائبة عن الوعي، انتظرت، أنتظر أي إشارة، أي خبر.

بعد ساعة، خرج الطبيب وقال إن الصورة لا تظهر شيئًا مريبًا، لكن التحاليل كشفت وجود التهابات في الدماغ.

انهرت، سقطت على المقعد في الممر وأنا أبكي، وسمعت صوت أحمد خلفي يجهش بالدعاء.

قال الطبيب: "يجب حجزها في المستشفى فورًا، الوضع بحاجة لمتابعة دقيقة، نأمل أن تكون استجابتها للعلاج سريعة، لكن لا نضمن شيئًا."

أُدخِلت لانا قسم الأطفال، قسم مليء بالنازحين، والدموع، والآهات.

الغرف مملوءة، لا أسرّة كافية، لم أجد إلا كرسيًّا صغيرًا أجلس عليه بجانب سريرها المعدني.

كانت الأجهزة من حولها ترنّ، والممرضات يدخلن ويخرجن، والمحاليل تتغير، وأنا أحدّق في وجهها كمن ينتظر قرارًا من السماء.

مرّت عشر ساعات كأنها دهر، وفي الساعة الأخيرة من الليل، قبيل الفجر بقليل، بدأت لانا تحرّك عينيها، همستُ باسمها، وضعت يدي على خدها. فتحت عينيها، نظرت إليّ، ثم تمتمت:

"ماما... أنا اشتقتلك."

حضنتها وقلبي يرتجف، دموعي كانت تنهمر كالسيل، قلت لها:

"يا عمري، يا ماما، أنا هنا ما تركتك قومي يا روحي."

كانت نبرتها ضعيفة، بالكاد تسمع، لكنها ابتسمت لي، طلبت ماءً، سقيتها بيدي المرتجفتين، مدت يدها تلمس خدي، وقالت بصوت خافت:

"ماما... ليش هاي الواوة؟"

ارتجف قلبي، قلت لها:

"معلش يا حبيبتي، هاي الواوة عشان نطيب راسك وتروقي وتلعبي معي زي زمان."

بدأ النهار يتسلل من نافذة الغرفة الصغيرة، وكان صوت الآذان يعلو من بعيد، يتداخل مع أصوات الطائرات والطوارئ والموت، لكن لانا كانت هنا، تتنفس، وتبتسم.

جاء الطبيب صباحًا، لفحصها وأخبرني أن حالتها بدأت تستقر، لكن يلزمنا حجز أربعة عشر يومًا، نظرت إليه وأنا أبتسم بمرارة! أربعة عشر يومًا هنا، في هذا الجحيم، لكن كله يهون في سبيل حياة لانا.

دخل أحمد الغرفة، اقترب من لانا، التي ابتسمت وفتحت ذراعيها له، حضنته بقوة، قالت له بصوتها الضعيف:

"بابا، بحبك كتير..."

ثم تابعت:

"بابا طعميني إنت..."

جلس أحمد قربها، وأطعمها شيئًا من الحساء، وهي تضحك بخفة.

لحظات نادرة من الفرح وسط حرب لا ترحم، وسط مستشفى يشبه خندقًا من خنادق المعركة، وأصوات الصواريخ لا تكفّ.

وفي الزاوية، كنت أنا...

أتنفسها، أراقبها، وأحمد الله كل ثانية.

لكن الغموض لم ينتهِ، الطبيب لم يستبعد أن يكون المرض قديمًا، أو أن هناك شيئًا خفيًا لا تلتقطه الأجهزة! بقيت فكرة "التهاب الدماغ" تحمل في طياتها أسئلة معلّقة، هل هو عرض عابر؟ أم بداية لشيء أكبر؟

كل ما كنت أعلمه حينها أن قلبي ما عاد يحتمل، وأن روحي مربوطة بطفلة صغيرة، كل ما فيها يهمس لي بالحياة، كان كلُّ شيء يوحي بالنهاية السعيدة، كأنّ الحياة قد قررت ــ ولو لبرهة ــ أن تنصفنا، أن تمنحنا مهلة صغيرة نلتقط فيها أنفاسنا المتقطعة منذ شهور.

لانا تبتسم، وتتنفس، وتضحك، وأنا أعيش على وقع دقّات قلبها، أعدّ نبضاتها سرًّا، كأنّني أخشى أن يتوقف الزمن عند غفوةٍ لا تعود منها.

خرجنا من المستشفى بعد أربعة عشر يومًا من الانتظار المرّ، بعد ليالٍ معلّقة بين السماء والأرض، حملتُ لانا بين ذراعيّ كما يُحمل العائد من المعركة حيًّا، كأنّني أنتزعها من فم الموت بيدٍ مرتجفة وقلبٍ لا يزال ينزف خوفًا.

عند عتبة البيت، كانت العائلة بأكملها واقفة، تحمل الدعوات والدموع في آنٍ معًا، الكلّ يريد احتضان لانا، لمس خدّها، سماع ضحكتها الصغيرة التي غابت طويلًا عن جدران هذا المنزل المتعب، كان اليوم عيدًا بلا موعد.

وفي الغد، قرّر والدها أن يملأ البيت حياة! وليمة طعام، ضحك، أطفال يركضون.

"لنحتفل بأنّنا انتصرنا"

قالها، وهو يضع يده على رأسي ويبتسم، لم أصدّق تمامًا، لكنني أردت أن أصدّق، أردت أن أعيش لحظة لا يُظللها الحذر، لا يُربكها القلق.

حضّرت السماقية، تلك الأكلة التي لا تُطهى إلا في الأفراح، طعمها يُشبه نكهة الفرح الفلسطيني حين يزور البيوت المتعبة.

وزّعنا الأطباق على الجيران، وارتدى البيت رداء الاحتفال، وإن كان من خلف جدران خيام الحرب وصرير القذائف.

جلسنا إلى السفرة، جلست لانا بجانبي، عيناها تتأملان الألوان، وشفتيها تتهامسان بأغنية صغيرة. ولكن...

فجأة، نظرت إليّ نظرة غريبة، نظرة لا تشبه طلتها المعهودة، نظرة غارقة في البُعد! ثم وضعت يدها على رأسها، وهمست: "ماما... واوة..."

كلُّ شيء توقف، ضحك الأطفال، صوت الآذان، حتى قلبي توقف.

كان المشهد يكرر نفسه، وكأنّ النهاية السعيدة لم تكن سوى استراحة من كابوس، لا أكثر.

ركضنا إلى المستشفى، وهذه المرة إلى غير تلك التي اعتدناها، الوجوه مختلفة، الأطباء لا يعرفون تاريخ لانا ولا وجعنا الطويل، أخبروهم بكل شيء.

"ادخلوها فورًا، وضعها غير مستقر"

قالها الطبيب بصوت خافت لكنّه مشحون بالخطر.

عدنا إلى ذات الدائرة، سرير أبيض، محلول، بكاء، وجوه من حولي تتكرر، صلوات مكتومة، وكلما حاولت لانا أن تفتح عينيها، تخذلها الدنيا، فترجع إلى ظلالها.

حين مرّ الطبيب صباحًا، حدّق في عينيّ وقال:

"راقبي عينيها قبل أن تنام، هناك ما لا يُطمئن."

راقبتها، كانت عيناها تهربان من نقطة إلى أخرى بلا تركيز، كنت أعلم أن شيئًا غير طبيعي يحدث.

في اليوم التالي، أُعلن التشخيص: تشنجات بسيطة.

بسيطة؟ لا يوجد شيء بسيط حين يتعلّق بلانا، كلّ خلجة من جسدها هي كوني الصغير، ومجرد اضطراب واحد فيه يُفجّر قلبي.

لم أُصدّق، كيف؟! لانا؟ تلك التي كانت تعدّ حتى العشرة، وتحفظ من القرآن، وتضحك للجميع؟ التشنجات؟! لا، لا يمكن.

لكنّ الطبيب قالها بوضوح، والدواء كان ضروريًّا.

بدأت رحلة دواء جديدة، ونحن في زمن لا يُشبه شيئًا، لا تخطيط دماغ، لا إمكانيات، فقط اجتهادات في ظلّ عجزٍ شامل.

وفي كلّ هذا، كنت أُخادع نفسي، وأخدع من حولي. أبتسم في وجه لانا كي لا ترى دموعي، أُخبئ ارتجافي حين يدخل الطبيب، لكن قلبي، كان كومة فزع.

بعد عدّة أيام، بدأ الدواء يعطي مفعوله، عادت لانا للوعي، ببطء، كمن يعود من حلمٍ ثقيل، عادت تهمس: "ماما بحبك."

ضحكتها عادت، لكنها صارت متقطعة، كأنّها تخشى أن تبالغ في الفرح.

وحين خرجنا من المستشفى مرّة أخرى، لم أحتفل، لم أطبخ السماقية، لم أزّين البيت، كنت أعلم في قرارة نفسي أن الحرب لم تنتهِ، وأن النهاية السعيدة التي حلمنا بها لم تكن إلا وهمًا مؤقتًا.

في الليل، وضعتها قرب صدري، وشممت شعرها، وقلت لها بصوتٍ لا يسمعه أحد:

"الريح التي لا تُرى مرّت من هنا ولن تعود، أليس كذلك؟"

لكنّي كنت أعلم أنها تُقيم في مكانٍ ما، خلف الستائر، في الهواء، في نظرة مبهمة، في وجع مفاجئ، في رعشة يد صغيرة تقول لي:

"ماما... واوة."

خرجنا من المستشفى كمن يخرج من معركةٍ حاميةٍ بالكاد أنقذ فيها روحه، لا منتصر ولا منهزم، بل مُنهك يحمل بقاياه على كفّ الدعاء.

لانا إلى جانبي، شاحبة الملامح، ساكنة الجسد، لكن روحها ما زالت معلّقة بشيءٍ لا يُرى، بشيء لا أفهمه، كل لحظة كنت أنظر إليها فيها، كانت تبتسم وكأنها تعرف شيئًا لا أعرفه، وكأنها تُطمئنني على أمر لا أعلمه.

أذكر جيدًا أول صباح استيقظنا فيه في البيت...

صوت العصافير، رائحة القهوة، ضحكة لانا وهي تركض خلف ظلّها في الممر، كنت أقول لنفسي: "ربّي، الحمد لك، لقد عدنا، لقد عادت."

لكن بداخلي كان هناك شيء ما لا يزال معلقًا، وخزة غريبة لم أفهمها حينها، ولم أرد أن أفهمها، أعدّ لها الدواء، وأقرأ الجرعات كما لو كنت أكتب آياتٍ مقدسة، لانا في البداية استجابت، بدأت فيها تضحك قليلًا، تسير ببطء، وتحكي لي عن أحلامٍ تراها عن طيور وقطط،

مرّت ثلاثة أسابيع، بدا أن الأمور تستقر، كنت أكتب في دفاتري أن النهاية اقتربت، وأن الله قد استجاب.

حتى جاء ذلك اليوم...

****

حين افترقنا عند باب العناية

حين افترقنا عند باب العناية

فجأة، في صباحٍ لم يكن عاديًا، استيقظتُ على صرخةٍ اخترقت روحي. كانت لانا تتلوّى، وجهها منتفخ، عيناها زائغتان، تصرخ وتشهق وكأن جسدها يتمزق من الداخل، حملتها بذراعين مرتجفتين، ركضتُ بها إلى الشارع وأنا أصرخ.

جاء أحمد، كان على مقربة، ركبنا السيارة، لانا بين ذراعي كجسدٍ مبللٍ من الحزن والخوف، لا صوت، لا وعي، فقط قلبٌ ينبض بجنون، والدكتور حين فحصها قال:

"النبض٢٦٠، حالة حرجة! إلى العناية المركزة فورًا"

كأن شيئًا أسود سقط عليّ، لم أفهم الأرقام، لكن فهمت العيون، العيون لا تكذب، كل من حولي كان مذهولًا، صامتًا، وكأنهم يعرفون أن النهاية تقترب، كنت أصرخ في داخلي:

"لا، ليس بعد، ليس الآن".

ركبنا سيارة الإسعاف، وأنا أكاد أنهار، لكني تماسكت، لأجلها، لأجل قطعة الروح التي إن رحلت، ما عدت أنا.

في مستشفى الأوروبي، أخذوها مني سريعًا، نقلوها إلى العناية، وأنا واقفة خلف الزجاج لا أستطيع أن أتنفس، الطبيبة سألتني عن التفاصيل، شرحتُ، وكل كلمة كانت كأنها خنجر.

سألتها: "هل أستطيع أن أبقى معها؟"

قالت: "الأمر صعب، لكننا سنحاول".

بقيت هناك، جالسة على المقعد البارد، وظهري للضوء، ووجهي نحو الباب، أنتظر خبرًا، صوتًا، أي شيء.

بعد ساعات، أخبرتني الطبيبة أن ما حدث للانا كان بسبب تشنجات عصبية متكررة غير مكتشفة، كانت تحدث وهي نائمة أحيانًا، أو في صمتها الطويل! لم نكن نلاحظها، لكنها كانت تشتعل داخلها، حتى أثقلت جسدها وأربكت نبض قلبها، بدأوا بعلاجٍ مكثف، وأنا أراقبها من خلف زجاج غرفة العناية، كأنني أراقبها من عالمٍ موازٍ، كانت صغيرة، لكنها تقاوم، كانت كلما سمعت الآذان ترفع سبابتها الصغيرة، وتهمس: "ماما... بدي أصلي"

تنهّد قلبي ألف مرة وهو يراها تستفيق ثم تغيب، ثم تعود ثم تنطفئ.

في إحدى الليالي، دخلتُ إليها متسللة بعد أن سمحوا لي بدقائق، وضعت رأسي على طرف سريرها، وبدأت أقرأ القرآن بصوتٍ خافت، كانت عيناها مفتوحتين قليلاً، ويدها تتحرك نحوي، أمسكتُ بها، فقالت بهمس: "ماما... لا تروحي... أنا بخاف".

حاولت أن أتمالك دموعي، وقلت: "أنا معك، ما تخافي ماما معك"
سبعة أيام متواصلة وهي في العناية...
سبعة أيام لا تعرف فيها الليل من النهار، ولا الدواء من الألم، فقط تُمسك إصبعي كلما أقبل الآذان، وترفع سبابتها بتنهيدة وكأنها تقول: "أنا هنا، أنا أؤمن، أنا أقاوم".
في اليوم الثامن، قال الطبيب: "الحمد لله، استقرت، تقدروا تطلعوا."
رجعنا إلى البيت محمّلين بحقيبة دواء أكبر، وقلق أكبر، لكننا كنّا نبتسم ابتسامة الخائف الذي يسرق فرحة صغيرة من فم القدر.
مرت أيام، جميلة، قصيرة، حنونة، صوت لانا يملأ البيت، وهي تقول لأبيها: "بابا طعمني"،
وأنا أراقبها بعينين لا تشبعان.
لكنّ الظلال لا تغيب طويلًا وفرحتنا لم تطُل، لم تمر سوى أيام، وإذا بالقدر يختبرنا من جديد.
بعد أسبوعين فقط، استيقظتُ عليها من جديد، لكنها لم تصرخ هذه المرة، بل كانت تصدر أصواتًا غريبة، وترتعش.
كل جسدها كان يتشنج، للمرة الأولى أرى لانا هكذا.
أنا أيضًا، تشنج جسدي من الخوف.
عدنا إلى المستشفى وفي أقل من ساعة، تعرضت لأربع نوبات، والوجع هذه المرة كان أكثر قسوة.

قال الطبيب: "لازم تدخل العناية مرة تانية، وهي بحاجة لتحويلة علاج للخارج، غزة لا تملك الإمكانيات."

أدخلت لانا العناية مرة أخرى، هذه المرة كانت أضعف، وأصغر، وأرهق.

بدأت الأجهزة تملأ جسدها، وأصواتها تملأ رأسي.

كنت أقرأ القرآن بصوت خافت، أكتب اسمها على كفّي، وأقرأ عليه آيات الشفاء.

لم يكن الأمر تشنجات فقط.

بعد يومين، قال الطبيب: "الآن عندها اختلال في كهرباء القلب أيضًا، وتحتاج لتحويلة علاج أخرى".

أحسستُ أن السماء ضاقت على الأرض، وأن الهواء انتهى من حولي.

لا مستشفى قادر على علاجها هنا، لا كهرباء تكفي لتشغيل الأجهزة، لا طاقم طبي يكفي لإنقاذ طفلٍ يشتعل في كل جزء من جسده، دخلت العناية من جديد، والأجهزة تُصفّر كل بضع دقائق، وأنا أعدّ أنفاسها، كل نبضة، كل شهيق، اختلطت عليّ التفاصيل، لم أعد أفرّق بين الدماغ والقلب، بين العلاج والدعاء، بين لانا والروح التي تتبعها، لكنها، رغم كل شيء، ظلت ترفع إصبعها مع الأذان، ظلت تتمتم: " الله معي تخافيش يا ماما"

لكن لانا... آه يا لانا، كانت تقاوم.

كانت كلما أفاقت من الغيبوبة، تقول لي: "ماما، صلّي معي."

كنت أضمها، أفتح يدي، وأقول: "يا رب، لا أريد شيئًا من الدنيا سواها."

وفي كل آذان، كانت ترفع سبابتها، ترفعها وكأنها تشهد على الحياة والموت معًا.
مرت سبعة وعشرون يومًا.
كانت لانا فيها بين الموت والرجوع، بين السماء والأرض، بين الأمل والخوف، سبعة وعشرون يومًا من العناية المركزة، سبعة وعشرون فجرًا وأنا لا أنام، وأنا أقول لنفسي:
"ربّي، لا تذقني فقدها، فليس لي بعدها حياة."
وفي اليوم الثامن والعشرين... خرجنا! نعم، خرجنا من المستشفى.
لكنّي كنت أعلم، في داخلي، أن هذه ليست النهاية؛ لأن الريح التي لا تُرى، لا تتوقف، وكنت قد بدأتُ أراها، تدور حولنا، تهمس، وتنتظر.
خرجنا، أخيرًا، ونحن لا نحمل شهادة شفاء بل شهادة نجاة، لكنني في داخلي كنت أعلم أن ما ينتظرنا، ليس النهاية.
خرجنا من المستشفى في العاشر من ديسمبر، كان قلبي يرفرف بخفة، كطائرٍ نجا من شركٍ كاد يفتك بجناحيه، عادت لانا إلى البيت، عادت كما لو أن شيئًا لم يكن! كانت أجمل من أيّ وقتٍ مضى، ضحكتها ملأت الزوايا، خطواتها الصغيرة ترن في أذني كأجراس سلام.
كنا لا نزال نستمر على علاجات التشنجات، لكنّ عينيها، ضحكتها، يقظتها، كانت تطمئنني أن كل شيء بخير، كانت توقظني في الصباح وتقول بصوتها الطفولي الدافئ: "ماما، قومي، بدي حليب".
فأقوم مبتهجةً لأصنعه، أنظر إليها وهي تشربه كأنها تشرب من نهر الحياة.

كانت تغني لي: "أحب أمي وأحب أبي، دائمًا وأبدًا".

ثم أضحك لها: "يا روحي يا ماما، أغلى كلامك".

كانت لانا محور العائلة، قلبنا النابض، الكل يأتي لزيارتها، لا من أجلي، بل من أجلها هي، لم تكن طفلة عادية، كانت تجذب القلوب بنظرة، تسرق الحزن من الجدران.

عندما كنت أصلي، كانت تقف بجانبي، تضع يديها الصغيرتين على صدرها، وتهمس بما تعرف من دعاء، تقلدني في كل شيء: طريقة المشي، الضحك، الجلوس، وحتى طريقتي في طي الغطاء، كانت مرايا روحي، وكنت أشعر أنها تفهمني دون أن أتكلم.

كانت تحفظ أسماء أفراد العائلة، تُحب الجميع وتضحك للجميع، حتى عندما كانت تلعب مع الأطفال في الحي، كانت تبهرني بذكائها وتفاعلها، تتابع تلاوة القرآن من الهاتف، تردد خلف الشيخ، تحفظ الأعداد بالعربية والإنجليزية، وتعيدها على مسامعي بفخر.

في إحدى المرات، سألتني: "ماما، شو اسمك؟"

فأجبت، فضحكت وقالت: "أنا لانا، وانتي يا ماما إسراء!"

ثم أشارت إلى عيني وقالت: "وين عينك؟"

وإن أخطأت، صوّتت عليّ بغنج: "ماما، خطأ، هاي عينك"

وتضحك حتى تدمع عيناها.

مرّت الأيام سريعة كنسمة ربيع، وجاء اليوم الموعود: الثاني والعشرون من ديسمبر، موعد مراجعتنا لدى الطبيب، كنت متحمسة جدًّا، فقد أردت أن يرى الطبيب لانا وهي بخير، ليراها تتكلم وتضحك وتلعب، لا تلك الطفلة المنهكة على سرير أبيض.

في الصباح، أيقظتني لانا: "ماما، اليوم نروح عند الدكتور؟"

أجبتها بابتسامة: "نعم يا عمري، اليوم الدكتور حيشوفك وهيك تفرجيه كيف صرتِ قوية".

اختارت لانا أن ترتدي جاكيتها الزهريّ، مع البوت الأبيض الطويل، ورشت عطرها المفضل كأنها ذاهبة إلى حفلة.

وقفت أمام المرآة وقالت لأبيها: "شوف، لستها سيدها، شو حلوه الأواعي!"، وضحكنا جميعًا.

في الطريق إلى المستشفى، كانت تغني وتضحك، تلوّح للناس من نافذة السيارة وكأنها أميرة يعرفها الجميع.

دخلنا غرفة الطبيب، دخلت لانا أولًا وقالت بصوت واضح: "السلام عليكم، كيفك يا دكتور؟"

فاندهش منها، وقال: "ما شاء الله عنكِ، يا حبيبتي".

لكن فجأة...

شيءٌ ما انكسر في الجو، لم تمضِ لحظات حتى رأيت لون لانا يتغير، وتغيّر وجه الطبيب، قال بصوت منخفض: "كهرباء قلب".

وبدأ يفحصها، في لحظة، فقدت لانا وعيها، وسقطت في حضنه، بدأت أسمع دوي خطوات، أصواتًا مبهمة، وصرير أسرّة متحركة، دخلنا قسم الأطفال.

أغمضت عيني لثوانٍ، كي أُخفي ذعري أمام والدها، حاولت التماسك، صلّبتُ قامتي، لكن داخلي كان ينهار.

الممرضة كانت تُركّب لها الكانيولا، جهاز على يدها، جهاز على صدرها، سائل يُضخ، وعيني لا تفارق أنفاسها.

قال لي أحد الأطباء: "لا تقلقي يا أم لانا، تفاءلي، إن شاء الله تكون بخير".

وكنت أتمسك بكلماته كما يتمسك الغريق بخشبة.

يوماً بعد يوم، بدأت لانا تصحو، في كل مرة تفتح فيها عينيها، كنت أتنفس مجددًا، كما لو أن روحي مربوطة بوعيها، عاد صوتها، وعاد ضحكها شيئًا فشيئًا، الدكاترة والممرضين كانوا ينتظرونها أن تستيقظ كل صباح، يتفاجؤون بها كل مرة.

كانوا يقولون: "كيف هذه الطفلة تصحى طبيعية بعد ما يحدث لها؟"

"جسمها لا يستجيب للعلاج إلا قليلًا، لكنها تعود كأن شيئًا لم يكن"

"هذه الحالة غير مفسّرة!"

كانت تقلبات حالتها غامضة، وكأن هناك سرًّا لا يريد أن يُكشف! مرة بخير، ومرة تسقط من بين أيدينا كنسمةٍ تتلاشى! كانت الدقائق تمرُّ ثقيلة، كأن الزمن يتربص بنا.

في غزة، لا أجهزة، ولا أدوية كافية، ولا حتى وقت للتنفس، الحرب قائمة، الصواريخ لا ترحم، المستشفى نفسه لم يكن مأمنًا، ومع ذلك، كنت أنتظر التحويلة الطبية بفارغ الصبر، كنت أتوسل للسماء أن يُكتب لنا الخروج، الخلاص، فرصة أخيرة للحياة.

كان والد لانا يركض من دائرة إلى أخرى، من مكتب إلى مكتب، من مستشفى إلى معبر، يبحث عن منفذ، عن طريقة نُخرج بها لانا من بين أنياب الموت.

وفي كل مرة كانت لانا تتحسن، كانت نوبات التشنج تعاودها، فنضطر أن نبقى يومين متواصلين دون نوبة واحدة حتى يسمحوا لنا بالخروج، كانت القاعدة الطبية واضحة: ٤٨ ساعة بلا تشنج = خروج.

لكن لانا، كعادتها، كانت استثناءً.

تمشي وتضحك وتتكلم، ثم فجأة... تتوقف.

تصحو وكأنها لم تكن على شفير الموت قبل ساعات، تغني، تسأل، تمازح الممرضين، ثم تغيب.

كان بعض الأطباء يأتون فقط لرؤيتها، يلمسون جبينها، يبتسمون لها، ويسألونني:

"هل تؤمنين بالمعجزات يا أم لانا؟"

وأقول: "أنا أعيشها."

في إحدى الليالي، وبينما كانت لانا نائمة، سمعت الطبيب يقول لطبيب آخر:

"هذه الطفلة فيها شيء لا يمكن تفسيره طبّيًا، هناك أمر لا يُرى، لا يُلمس، لكنه موجود."

سكت الاثنان، وأنا من وراء الستارة، أضم ابنتي إليّ وكأنني أحاول حمايتها من شيء لا أفهمه.

هل كانت لانا تكشف لنا وجهًا آخر للواقع؟

هل كانت ترينا أن بين الغيب والحياة خيطًا خفيًّا لا نراه؟

لم أعد أعرف، لكنني كنت أعلم شيئًا واحدًا:

أنّ لانا، طفلتي، ليست عادية، وأنّ هذه المعركة لم تنتهِ بعد

****

بلا سـرير ثابـت

بلا سرير ثابت

وفي اليوم الأول من عام ٢٠٢٥، وبينما كان العالم ينفض غبار سنة مثقلة بالحرب والخراب، كُتب للبيت الصغير أن يستعيد بعضًا من روحه، فقد خرجت لانا، أخيرًا، من المستشفى.

حملتُ أوراق الخروج بيد مرتجفة، وكأنها تصريح بالحياة، وثيقة انتصار صغيرة على الألم، كان ذلك اليوم بداية لا تشبه ما قبله، بداية تَغلب فيها نور ضحكتها على ظلال غرف العناية المركزة.

لانا، تلك الصغيرة التي عادت من على حافة الغياب، دخلت البيت من جديد، كأنها شمس تُضاء بها الزوايا المعتمة، كانت تمشي بخطى حذرة لكنها واثقة، تمسك بأصابعي كأنها تُملي عليّ وعدًا غير منطوق: "أنا هنا، يا ماما، وسأبقى." في عينيها لمعة لا تُشبه لمعة الأطفال فحسب، بل تُشبه نجمة نجت من احتراقها.

كان الطبيب قد أوصاني، بصوتٍ بدا وكأنه يحمل ذنوب العالم: "انتبهي عليها، أقل ضرر ممكن يسبب لها تشنج."

كنتُ أُراقب أنفاسها، وأحصي خطواتها، وأحرس نومها كما تحرس الأمهات الحلمَ من الكوابيس، في الليل، كانت تأتي إليّ بذراعيها الصغيرتين، وتهمس: "ماما، بدي أنام.. نيّمني."

أضمّها إلى صدري، كأنني أحتضن الحياة كلّها، وأدفن رأسي في شعرها، وأهمس دون صوت: "يا رب، لا تأخذها مني."

كان أبوها يحاول أن يُبدي صلابته، لكنني كنت أراه يُحدّق بها أكثر من اللازم، يتأمل كل تفصيلة في وجهها كأنها لوحة قد تفقد ألوانها في أي لحظة، وبينما كنا نُحاول استعادة إيقاع الحياة، كنا نسابق الزمن لتصديق تحويلة علاج خارج غزة، كنا نُصارع الأوراق والحدود، نركض خلف باب أمل مفتوح، لنعرف فقط: ما الذي يُتعب لانا؟ وما الذي نُصارعه فعلًا؟

كانت لانا تتجول بيننا كأنها روح قديمة في جسد طفلة، تلعب، تغني، وتضحك. تقول لخالها: "قوم نمشي، أنا وإنت."

تمشي بجواره تحت صوت الطائرات المُجنّحة، وتغني له: "أنا حبيبة بابا.. رد عليّا يا خالو." وكان يردّ عليها وهو يضحك بعين دامعة.

وحين تزورنا جدتها، تجلسها لانا على الكرسي، تطلب منها الهاتف، تقول بثقة: "ستو، هاتي جوالك أشحنه."

ثم تجلب لها الدواء، وترفع قدميها على الطاولة الصغيرة كأنها سيدة بيت تعرف تمامًا ما عليها فعله.

رغم الحرب، رغم القصف، رغم كل شيء، كانت لانا الزهرة التي لا تذبل. كانت تُجمّل أيّامنا القاسية، تملأها دفئًا وألوانًا وبهجة.

في كل ليلة أنام فيها إلى جوارها على سريري، كنت أُصلّي بصمت: "يا رب، شكرًا إننا ببيتنا، مش على كرسي مستشفى."

لكن السلام لا يُقيم طويلًا في قلوب أنهكتها الخسارات.

في إحدى الليالي، وبينما كنت أُهيئ لانا للنوم، شعرتُ بشيء غريب! كانت خافتة الصوت، تنظر إليّ بوجه شاحب، اقتربتُ منها، وضعت رأسي على صدرها، سمعت صوت قلبها كطبول حرب.

نبضات قلبها عالية، مجنونة، تنبض وكأنها تُصارع شيئًا لا نراه! أسرعتُ بجهاز فحص النبض.

الرقم صعقني: ٢٠٠ نبضة في الدقيقة! رغم أنها تتناول دواءً لتنظيم ضربات القلب، إلا أن شيئًا ما كان يخرج عن السيطرة، أيقظتُ والدها، ارتجفت أصابعي وأنا ألبسها معطفها، وخرجنا في البرد، والقلق ينخر صدري.

وصلنا المستشفى، الدكاترة باتوا يعرفوننا كأهل بيتهم، لم يعد دخولنا يحتاج لتقديم، لكن هذه المرة لم تكن نوبة تشنج، كانت نوبة قلبية مصغّرة.

التفّ الأطباء حولها، وبينما وجهها يصرخ ألمًا، كانت تهمس: "يا رب، في واوة."

لم تتحمل قلبها الصغير هذا الإيقاع المجنون.

أُعطيت أدوية جديدة، لكن النبض ظلّ جامحًا، لا يستجيب. قال الطبيب: "لازم نُعطيها أدينوسين."

كنتُ أعلم أن هذا الإجراء ليس سهلًا، لكن لم يكن أمامنا خيار.

أُعطيت الدواء، نزل النبض من ٢٠٢ إلى ١٦٠.

لحظة تنفستُ فيها بارتياح، لكنها لم تدم، عاد النبض إلى الصعود، إلى ٢١٠.

الطبيب نظر إليّ بعينين ثقيلتين وقال: "إذا ما نزل قبل الصباح، سنضطر نستخدم جهاز الصدمة الكهربائية."

صرت أرتجف! لم أُرد أن أُظهر خوفي، لكن عينيّ فضحتا قلبي، تمسكت بأمل واهٍ وقلت: "إن شاء الله خير."

ثم انعزلتُ في الزاوية، ناجيتُ الله، بكيتُ دون صوت، قلت له: "يا رب، عشان خاطري، أنا عارفة إنها غالية عليك، بس يا رب، لا توجعها، لا تحرمني منها، يا الله."

غفوتُ على الكرسي، والغصة في حلقي لم تهدأ.

بعد ساعتين، استيقظت، تسللت نظراتي إلى الشاشة، وقلبي يقفز من بين ضلوعي١٤٠! النبض استقرّ، نزل، أخيرًا نزل!

ركضت إلى الطبيب، قلت له: "دكتور، نبض لانا نزل، الحمد لله!"

نظر إليّ، ثم نظر إلى شاشة الهاتف، وابتسم، تلك الابتسامة التي تحمل كل الثقل الذي لم يُقال، قال: "الحمد لله، يا أم لانا، الأمور تمام، إن شاء الله بتطلع التحويلة وبنطلعها برة، ونعرف شو السبب."

خرجتُ من غرفة الطبيب وأنا أجرّ خطاي ببطء، كأنني أسحب خلفي الليل بأكمله، كان البرد خارج المستشفى يلسع وجهي، لكن دفء الطمأنينة بدأ يتسرّب إلى قلبي، رويدًا رويدًا، لانا، طفلتي، ما تزال تقاوم، ما تزال تُفاجئ الجميع بأنها أقوى مما يتوقعون.

في اليوم التالي، عادت لتفتح عينيها ببطء، نظرت إليّ كما تفعل في كل مرة تُشفى فيها، كأنها تسألني: "نجوت؟" فأضمها إليّ، وأحاول أن أُخبئ الدمع في قلبي، لا على خديها.

كانت الممرضة تدخل، تُبدّل لها جهاز الأوكسجين، بينما لانا تبتسم لها وتقول: "شكراً يا خالتو."

كل من في القسم بات يعرفها، يحبها، يندهش من ذكائها وأناقتها، حتى الأطباء باتوا يدخلون الغرفة يوميًا لا ليكشفوا فقط، بل ليستمعوا إلى عدّها للأرقام، أو قراءتها لسورة "الناس" بصوتها الطفولي المليء بالحياة.

في اليوم الثالث، بينما كانت تتناول إفطارها المكوّن من لقيمات صغيرة، نظر إليها الطبيب طويلًا وقال لي:

"صدقيني، هاي الطفلة غير، في إشي جواتها أقوى من التعب."

أومأتُ له بصمت، وفي داخلي صوت يصرخ:

"هي مش بس أقوى من التعب! هي أعجوبة صغيرة."

لكن رغم كل هذا التحسن، لم يكن في القلب راحة تامة! كنتُ أخشى كل حركة، أراقب كل إشارة، أشعر أني أسير على خيط رفيع بين الحياة والاحتمالات، وكلما شعرت أنها بخير، عدتُ أذكر وصية الطبيب:

"انتبهي لأي حركة، أي ضرر، ممكن يرجعلها التشنج."

ولأننا كنا في غزة، كان التوتر لا يغادر، الزنانات لا تسكت، والغارات المفاجئة تعيدنا دائمًا إلى نقطة الصفر، ومع ذلك، كانت لانا تُضيء المكان،

تركض في الممرات، ترسم على الورق، تتحدث للجدران، تُغني للسماء، وكأنها تُعلّمنا معنى الحياة من جديد.

في مساء أحد الأيام، أتت ممرضة إلى سريرها وقالت لها مداعبة:

"إيش بدك تصيري لما تكبري يا لانا؟"

فكرت لحظة، ثم أجابت بجديّة:

" دكتورة.. عشان الواوة تروح."

أُصيبت الممرضة بدهشة، وغرقتُ أنا في البكاء.

أيامٌ أخرى مضت، وكلها تدور حول سؤال واحد: هل ستصدر التحويلة؟ كنا نركض خلف توقيع، ننتظر مكالمة، نتعقّب أيّ خبر، كأنها ورقة واحدة تفصل بيننا وبين الاطمئنان الحقيقي.

حتى خالها كان يأتي لزيارتها في المستشفى ويلعب معها يومياً، بات ينتظر الخبر، وهي تأتيه وتغني:

"أنا حبيبة بابا.. رد عليا يا خالو!"

فيردّ عليها وهو يحبس دمعه، يغني رغمًا عن قلقه، يداري خوفه بالضحك، ويرفعها عاليًا كأنها لا تزال لا تعرف شيئًا عن كل ما يحيط بها.

كل ليلة كنتُ أُعيد الطقوس نفسها: أُغلق باب الغرفة، أُطفئ الضوء، أضمها إلى صدري، أُقبّل جبهتها، وأُخبرها:

"إنتِ أحلى بنت بالعالم."

وأُناجي الله في سري:

"يا رب، إنتَ أعطيتني إياها، فلا تأخذها قبل أن تُتمّ نورها."

كان صباح اليوم السابع هادئًا، حتى دخل الطبيب وهو يحمل بيده ملفًا صغيرًا، قال لي:

"النبض ممتاز اليوم، ومستقر، لانا بطلة."

ابتسمتُ، كأن الشمس أشرقت في صدري، لكنه أضاف:

"بس إحنا لسا محتاجين نحاول نوصل للتشخيص الأدق، لازم تجهزوا أوراق السفر، يمكن تيجي الموافقة بأي لحظة."

أومأت له، وأنا أتمسك بالأمل كمن يتمسك بطرف غيمة لا يريد لها أن تتبخر.

في تلك اللحظة، أدركتُ أن النجاة في غزة ليست مجرد شفاءٍ من مرض، بل مقاومةٌ يومية للمجهول، معجزةٌ مستمرة نعيشها بالتقسيط، ولانا، كانت معجزتنا، نسختنا الصغيرة من الإصرار، الحب، والضوء الذي لا يُطفأ.

مرت الساعات، وجاء المساء، خرج الطبيب من الغرفة وقال لي:

"نبضها الآن ١٤٠، جيد، لكنه يحتاج مراقبة."

كنتُ أراقب جهاز قياس النبض كل خمس دقائق، كأن عينيّ لا تعرف النظر سوى إلى ذلك الرقم الرقمي الصغير، كنت أقرأه كما يُقرأ القدر، وأنتظر منه أن يبتسم.

في تلك الليلة، سمعت انفجارًا قريبًا، اهتز الزجاج، ارتعد قلبي، نظرت إلى لانا، فوجدتها مستغرقة في النوم، تنفّسها هادئ، اقتربت منها، قبلتها على جبينها، وتمتمت:

"يا رب، لا تقسو على هذا الجسد الصغير، احمِ قلبها من الحرب، ومن الأدوية، ومن كل ما هو أكبر من طاقتها."

في صباح اليوم التالي، دخل طبيب آخر لم أرَه من قبل! نظر إلى لانا، ثم قال لي:

"هاي الطفلة لازم نسابق الزمن في علاجها، الوضع مستقر بس قابل للانتكاس بأي لحظة."

كلماته كانت مثل مسمار في صدري، نظرت إلى لانا، كانت تلعب بألعابها الصغيرة وتقول لي:

"ماما، بدي العب بالعروسة."

قلت في سري:

"هي تضحك، وأنت تحذر من الموت؟ كيف يجتمع هذان النقيضان في سريرٍ واحد؟"

وفي المساء، رنّ هاتفي، كانت مكالمة من أحد الموظفين في وزارة الصحة العالمية.

"يا أم لانا، التحويلة قربت، بس محتاجين ورقة جديدة من المستشفى بتوضح الحالة الأخيرة."

أغلقت الهاتف بسرعة وهرعت للطبيب، كتَب التقرير، وختمه، وسلّمه لي وهو يقول:

"ادعي ربنا، لأنه لو طلعت، ممكن نعرف فعليًا شو بيصير معاها."

في تلك الليلة، بقيتُ بجانبها حتى نامت، وضعت رأسي على طرف سريرها، كنت أسمع دقات قلبها كأنها طبل نجاة يدق من بعيد، تخيّلتُ أننا على قارب، في وسط عاصفة، وأنا أتمسك بها كي لا تجرفها الأمواج.

يا رب، لا ترفع هذا القارب، دعنا نصل للشاطئ.

غفوتُ على ذلك الأمل، على شاطئ لم نصل إليه بعد، لكننا نراه في الأفق.

في الصباح التالي، استيقظتُ على صوت لانا تقول لي:

"ماما، أنا بدّي أروح."

مسحت وجهي ونهضت بسرعة، ضممتها وقلت لها:

"حاضر يا ماما بس تروقي بنطلع شوية وقت."

فقالت ببراءة:

"بس بدي بابا."

فكّرتُ في كل ما حُرمَت منه: ضحكاتها في الزوايا، خطواتها في الممر، فوضى ألعابها على الأرض، رائحتها التي كانت تعبق البيت،

كل شيء بات مرهونًا بورقة، توقيع، وموافقة لا تزال في طيّ الانتظار.

وفي المساء، نزل نبضها إلى ١٣٨، تنفستُ بعمق، وشعرتُ أن الحياة عادت إلى قلبي، نظرتُ إلى الطبيب والدمع في عينيّ، قلت له:

"الحمد لله، النبض منتظم."

ابتسم وقال لي:

"البطلة، هي اللي رجّعت قلبها."

جلستُ قرب نافذتها، نظرتُ إلى السماء، ثم نظرت لها وقلت في سري:

"الليل في غزة ليس ككل ليل، والطفولة هنا ليست كباقي الطفولات، والنجاة لا تعني انتهاء الألم! بل تعني أننا ما زلنا نقاوم."

ثم أغمضتُ عينيّ، لأحلم بحياة جديدة، حيث تُشفى لانا تمامًا، وتنسى كل هذه الغرف، والأنابيب، والصرخات، والأدعية المكتومة.

كان الصباح هادئًا على نحو خادع، كأن السماء تتآمر على قلبي لتمنحني بضع لحظات من الأمل المزيّف، فتحت عيني على وجه لانا، تلك النجمة الصغيرة النائمة على سرير المستشفى، تُمسك بيدها بطرف غطائها الوردي وكأنها تحاول أن تحتفظ بالدفء وسط عالم بارد.

كنت أمني النفس بأن يكون هذا اليوم مختلفًا، قلت في نفسي:

"اليوم، سنخرج من المستشفى! اليوم، تعود لانا إلى البيت، إلى ضحكاتها، إلى البسة لولو وألعابها الصغيرة."

لكن الفرحة لم تأذن بالدخول، والطمأنينة لم تجد طريقها إليّ، ما إن فتحت لانا عينيها حتى بدا التعب واضحًا في نظراتها.

مالت برأسها إلى الجهة اليمنى، ثم اليسرى، لكنها لم تستطع الجلوس. تمايل جسدها الصغير كأنه فقد توازنه، وكأن الجاذبية خانته.

دخل الطبيب بسرعة وكأن شيئًا ما كان يتوقّعه، فحصها بصمت، ثم التفت إليّ وقال بصوت خافت، كأنه لا يريد لكلماته أن تجرحني:

"معلش يا أم لانا، بدنا نأجل الخروج يومين تلاتة، مسافة ما لانا تروق."

ابتسمتُ بصعوبة، لا أعلم إن كانت ابتسامة أم انكسارًا حاول أن يتخفّى.

عدت إلى الكرسي المجاور لسريرها، حيث اعتادت أضلعي أن تستند عليه منذ شهور، كل ليلة كنت أنام عليه، وظهري يئن من قساوته، لكنني كنت أقول في داخلي: "فداها، كل شيء بيهون فداها."

في الخارج، كانت غزة تشهد هدوءً نسبيًا! بعض العائلات بدأت تعود من الجنوب إلى الشمال، تحمل بقايا الأمل في حقائبها المهترئة.

فكرت في أهلي، في بيتنا القديم، في رائحة القهوة الصباحية التي كانت تُغمرني كلما دخلت المطبخ، تمنيت لحظة واحدة معهم، حضنًا من أمي، أو حتى كوب ماء بارد من بيتنا.

لكنني بقيت، لم أتحرك، فوجودي إلى جانب لانا أهم من كل شيء.

في الجنوب، كانت الإمكانيات الطبية أفضل، وهنا، في هذا المكان المليء بالأجهزة والأنين، ما زالت هناك فرصة.

مرت ساعات ثقيلة، وفي غفلة من الوقت، دخل الطبيب مجددًا، ملامحه مشدودة، وعيناه تحملان اضطرابًا لم أعتده فيه.

قال بسرعة:

"يا أم لانا، الوضع بيخوف! لازم نلحقها على الأوروبي، العناية المركزة، لازم من هلّق."

لم أسأله عن التفاصيل، لم أسأله عن نسبة الخطر، عن احتمالية الشفاء، عن أي شيء، فقط أومأت برأسي وقلت: "حمدًا لله على كل حال."

بدأت الترتيبات سريعًا، تنسيق مع الإسعاف، تجهيز المستلزمات، وأنا أضم حقيبة صغيرة وضعت فيها كل شيء تملكه لانا... دفترها، فرشاة أسنانها، قطعة قماش وردية كانت تضعها تحت خدها عند النوم.

خرجنا من المستشفى، وصوت الصواريخ لم يتوقف، كانت السماء تنفجر، والأرض تهتز، لكنني كنت في مكان آخر، وكأن قلبي خرج مني وركض أمامي إلى حيث سينقلونها.

دخلت لانا العناية المركزة.

استقبلها الطاقم الطبي بوجوهٍ مزيجٌ من الدهشة والأسى، كانوا يعرفونها، يعرفون ضحكتها، ذكاءها، خفّتها رغم الألم. أحدهم قال:

"هاي لانا؟ كيف هيك؟ شو صار؟"

لم أجد إجابة! فقط نظرتُ إليهم وأشرت إلى السماء.

جلستُ خارج العناية، قلبي هناك، وعقلي في مكانٍ لا يُعرف له عنوان.

كل دقّة من ساعتي كانت كأنها طرق على باب الغيب.

كنت أتمسك بالأمل، بآية قرآنية، بدعاء من أمي، بصوت لانا وهي تقول: "ماما، بحبك".

كنت أتوسل لربي بصمتٍ يحترق.

"يا رب، يا رب، لا تخلّيها تتوجع، يا رب ما بهون عليك حزنها."

مرّت ساعات، طويلة كدهر، ثم، فجأة، خرجت إحدى الممرضات تبتسم:

"صحيت! صحيت وطلبت حليب!"

ركضتُ نحو الباب.

قالت لي الممرضة وهي تضحك: "قالت لي: يعيني يعيني، حليب! شكرًا شكرًا يا خالتو!"

ضحكتُ، لأول مرة منذ أيام! ضحكة حقيقية، تخرج من الأعماق وتبلل الوجع.

بعدها بساعات، دخل الطبيب وقال لي بابتسامة فيها من الطمأنينة ما أعاد إليّ الحياة:

"تفائلي يا أم لانا، إن شاء الله بتطلع من العناية."

كنت على وشك الانهيار من الفرح.

نعم، العناية مكان صعب، لا يُدخله إلا من اقترب من حافة الخطر، والخروج منه انتصار، خرجنا من العناية مع سيارة إسعاف أخرى، وكأننا لا نزال في قلب معركة لم تضع أوزارها بعد، كانت لانا مستلقية بهدوء، والنبض على جهازها أكثر انتظامًا، كأنها خرجت لتوّها من معركة طويلة مع الموت، وما زال صدرها يلهث، يبحث عن الهواء.

في الزاوية المقابلة من السيارة، كان هناك طفل بعمر العشر سنوات، ملفوفٌ ببطانية زرقاء، وملامحه باهتة، لكن عينيه فيهما فضولٌ لم يُطفئه الوجع بعد.

نظرت إليه لانا، لم يكن قد مرّ على إفاقتها من الغيبوبة يومان، لكن روحها عادت كما كانت، لم تُصب بالتردد، ولا بالرعب، ولا بالانسحاب.

سألته بصوتها الطفولي الحبيب:

"شو اسمك يا حلو؟"

أجابها الطفل بخجلٍ: "جاسم."

فابتسمت وقالت له: "من مين الواوة؟ سلامتك."

ضحك جاسم، وقال بصوت خافت: "من الدكتور."

ضحكت لانا، ثم نظرت إليّ بعينيها المتقدتين وقالت: "ماما، هادا صاحبي الجديد!"

ضممتها إليّ، ورأسي يغرق بين خصلات شعرها، وهمست: "هاي بنتي، هاي الحياة وهي لسا بتناديني وسط الركام."

****

لماذا توقفتِ عن الضحك

لانا لماذا توقفتِ عن الضحك

وصلنا إلى البيت!

نعم، البيت! الكلمة وحدها تحمل ألف حكاية، ألف نغمة من الألم والحنين والراحة، كأن الزمن قرر أن يعيدنا إلى لحظة كنا نظنها فُقدت إلى الأبد.

دلفت لانا إلى المنزل بخطواتٍ مترددة، وكأن الأرض غريبة، وكأن البلاط لا يشبه بلاط المستشفى.

لكن شيئًا واحدًا أعاد لها الاتزان، صوت "لولو"، البسة الصغيرة، تركض نحوها وتتمسّح بقدميها.

صرخت لانا من الفرحة: "ماماا!، شوفتي لولو! لولو رجعت!"

ثم أمسكتها من رقبتها، وهمست لها: "يلا يا بسة، اضحكي للكاميرا!"

أحضرت هاتفي وبدأت تُقلّد أصوات التصوير: "اعملي لايك اعملي لايك خلّيكي حلوة، يلا!!!."

كانت الحياة تُنسج من جديد بخيوط ضحكتها.

كل من في البيت عاد ينبض.

ضحكها كان يملأ الغرف، يركض بين الجدران، يُوقظ النوافذ من سباتها.

لعبت مع أبناء الجيران، غنّت معهم، تحدّثت مع والدها بكل ثقة طفلة تُحب.

قالت له: "بابا... أنت جوزي!"

ضحكتُ وقلت: "لا يا لانا، بابا إلي."

نظرت إليّ بحدة طفولية وردّت: "لأ! أحمد إلي أنا! إنتي روحي عند امك!"

غارَت علي أبيها، كما لو أنها امرأة ناضجة.

غارَت وأنا أبتسم، وأنا أبكي، وأنا أشكر ربي على كل يومٍ جديد معها.

كانت الأيام جميلة...

لكنّ شيئًا غامضًا كان يختبئ في الظل، لم تكن الأيام التي تلت الخروج من المستشفى مجرد فسحةٍ للراحة، بل كانت هدنة قصيرة تمنحني فيها الحياة أنفاسًا متقطعة، أملًا سرابيًّا كأنّه وميض نجم بعيد، بدا أن لانا، تلك الروح الصغيرة التي ما انفكّت تتمايل بين الضياء والعتمة، قررت أن تعيش أو على الأقل، أن تُقنعنا بذلك.

كنت أراقبها وهي تضحك، تركض، تُنشد الأغاني، وتطلب أن أعلّمها شيئًا جديدًا في كل صباح، علّمتها الفرق بين الأحمر والأصفر، علّمتها أن تشير إلى قلبها وتقول: "هنا يسكن الحب"، وعلّمتها أن الركعة ليست انحناءً للجسد، بل خضوعًا للروح، كنت أتمسك بتلك اللحظات كمن يُمسك الرمال المتناثرة من بين الأصابع؛ أعلم أن الوقت يذوب، لكنّني أرفض أن أتركه ينفلت دون مقاومة.

حتى في ذروة الحرب، كنّا نخرج إلى البحر.

كانت أمواجه المشوشة تُربك صوت القصف، والملح على جبين لانا يُغني عن أي تفسير، كنّا نلعب، نضحك، نرسم على الرمال قلوبًا لا تعرف الانكسار.
وذات مساء، طرق الحنين أبوابنا من بعيد، زارنا والد زوجي، الرجل الذي اختطفته الحرب شمالًا، وأبعدته عنا لعامٍ ونصف، لم تكن لانا قد رأته من قبل سوى في صور باهتة على شاشة الهاتف، ومع ذلك، ما إن دخل البيت حتى هرعت إليه، احتضنته بقوة، وقالت ببراءتها المتوهجة:
"أنا بحبك يا سيدو."
تلعثم وارتجف صوته، ثم أجهش بالبكاء.
كان حضنها له أشبه باعتراف صامت: هذه الطفلة ليست كغيرها.
قال وهو يمسح على شعرها:
"هاي البنت عوض العشرة اللي استشهدوا! هاي البنت رحمة."
لم يكن الوحيد الذي رأى فيها ما هو أكبر من الطفولة، شباب العائلة كانوا يتسابقون على رؤيتها، يسمعون كلماتها بدهشة، ويلتقطون معها الصور وكأنهم يحاولون حفظ ذاك النور في عيونهم.
لكن الفرح -كعادته- لم يطل كثيرًا! كان ذلك مساء جمعة من شهر فبراير.
الضوء في الغرفة كان خافتًا، ولانا تلعب على الأرض بقطتها "لولو"، كنت في المطبخ أُحضّر الحساء، حين شعرت بشيء غريب! صمت مفاجئ، لا ضحكة، لا حركة.

خرجتُ مسرعة، وجدتها جالسة لكنها لا تنظر، لا تتكلم!

ركضت إليها، وضعتها في حضني. كانت باردة جدًا، جلبتُ جهاز قياس النبض.

الرقم الذي ظهر على الشاشة جعل الأرض تميد تحت قدمي: **50** نبضة.

لم أفهم! لانا تتناول أدوية تُبطئ نبضات القلب فعلًا، لكنها لم تصل لهذا الحد من قبل، كان في الأمر شيء غير مألوف، شيء لا يُطمئن.

اتصلت بطبيبها المتابع للحالة شرحت له الأعراض، صوته بدا مشوشًا، مترددًا:

"يا أم لانا، إذا كنتي قادرة، ابدئي تنفسًا صناعيًّا الآن."

وضعت فمي على فمها، منحتها من أنفاسي ما ظننت أنه لن يُجدي، لكنّ وجهها بدأ يستعيد لونه.

في دقائق، كنّا في السيارة، نجوب الشوارع المحترقة بقصف متقطّع. زوجي يقود كأن كل ثانية تسقط من الساعة تمحو احتمال نجاتها.

وصلنا المستشفى، كانت العائلة تنتظرنا، والعيون ترتجف.

دخلنا قسم الأطفال، وتعرف الطاقم عليها على الفور.

لكنّ وجوههم هذه المرة لم تكن مطمئنة، بدأ العلاج المكثف من جديد.

الأدوية تتسلل إلى عروقها الصغيرة، وأجهزة المراقبة تئنّ كأنها تتلو تراتيل الحذر.

كنتُ أراقب وجهها.

صغيرتي التي كانت تملأ البيت ضوءً، ترقد الآن كأنّها في انتظار حلم مؤجل.
بدأت تستفيق شيئًا فشيئًا.
ابتسمت، نادتني، لعبت بأصابع الممرضة وضحكت.
أحد الأطباء قال لي وهو ينظر إلى ملامحها:
"هذه الطفلة خارجة عن كل القواعد! عجيبة بحق."
لكن الغموض كان يتكثّف في أروقة الليل.
لم أشعر بالراحة، كنتُ أراقب نبضها كأنّي أقرأ كتابًا مكتوبًا بلغة لا أفهمها.
بعد كم يوم في تلك الليلة، وقعت الواقعة
كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، الغرفة ساكنة إلا من صوت جهاز المراقبة.
فجأة، بدأت أطراف لانا ترتجف، نظرت إلى الشاشة. تسارعت الأرقام.
ثم حدث ما كنت أهابه: نوبة تشنج.
صرخت، حملتها، وركضت بها نحو غرفة التمريض، وضعتها على السرير وبدأت بالإجراءات.
أنا -الأم- تحولت إلى ممرضة دقيقة، تنفّذ ما يلزم وكأنّها تحفظ خريطة جسد ابنتها عن ظهر قلب.
الممرضة دخلت، شهقت، ثم وقفت مذهولة:
"كيف بتعرفي كل هذا؟!"
قلت لها وأنا أضع الكمادة على جبين لانا:

"أنا اللي عشت معاها ست شهور، أنا اللي عشت بين حياتها وموتها."

جاء الطبيب، ونظر إليّ طويلًا، ثم قال بصوتٍ فيه شيء من الامتنان:

"لو لم تكوني هنا الليلة، ربما كنا فقدناها."

لكنها لم تكن نوبة واحدة! بل أربع نوبات متتالية، كل واحدة كأنها زلزال يجتاح قلبي، في كل نفضة من جسدها، كنت أشعر وكأن العتمة تتقدم خطوة.

قال الطبيب لي قبل الفجر:

"إذا استمر الوضع هكذا حتى الصباح، سنضطر لنقلها إلى العناية."

قلت، ودمعي يسبق الكلمات:

"لا، لا بتمزح أكيد لانا حتتحسن كالعادة."

قال بهدوء:

"الأمر ليس بيد أحد، جسدها سيقرر."

وبقيتُ معها، لم أغلق عينيّ.

أحسستُ أن هناك أمرًا لا يُقال، شيء ما لا يظهر على الأجهزة، لكنّه حاضر، كأنّ جسد لانا يُقاوم، لكن هناك قوة خفية تحاول أن تسحبها لمكان لا أستطيع الوصول إليه، كنت أراقب عقارب الساعة وهي تتثاقل، كأن الزمن ذاته يأنف المرور، الليل كان طويلًا، أقسى من أي ليل مرّ عليّ من قبل، كنت أجلس إلى جوار سريرها، أعدّ أنفاسها واحدة تلو الأخرى، وأحسّ أن كل نفس منها يخترق صدري قبل أن يخرج من صدرها، وجهها الباهت،

المغطى بشحوب غير مألوف، كان يرمقني بنصف وعي، وكأنها تحاول أن تطمئنني بصمتها لا بكلماتها.

كنت أنتظر الصباح، لا لأن الفجر يحمل معه الضياء؛ بل لأنّني صدّقت كذبة الأمل القائلة إن الأشياء السيئة لا تُحب النور، وأن الضوء قادر أن يُخفي ما تعجز عنه الأدوية، لكن قلبي كان في مكان آخر، في جهة أخرى من السماء، هناك حيث ملفات التحويلات تُقلب على مكاتب مجهولة، وهناك حيث مصير لانا ينتظر توقيعًا، أو معجزة.

كنت أنتظر أن تخرج التحويلة.

أن يرنّ الهاتف فجأة في هذا الليل الثقيل، ويخبروني أن الموافقة وصلت، أن الطريق فُتح، أن لانا ستغادر هذا الجحيم نحو مستشفٍ آخر، نحو فرصة جديدة، كنت أرجو، وأخاف، وفي كل دقيقة تمر، كانت الأحلام تصغر.

لم أعد أطلب شفاءً كاملاً، فقط رحلة، أي رحلة تُبعدنا عن هنا، عن المكان الذي حفظت فيه وجوه الأطباء، عن الأروقة التي شَهِدَت انهياراتي، عن الغرف التي باتت تعرف صوت بكائي أكثر من أي صوت آخر.

وفي زاوية القلب، كان هناك صوت صغير، خافت، يشبه رجفة:

"ماذا لو لم تأتِ التحويلة؟"

لكنّي كنت أهرب من هذا السؤال كما يهرب الجريح من النظر إلى جرحه.

كنت أكتفي بالنظر إلى وجه لانا، وأهمس لها رغم غفوتها المتقطعة:

"اصبري يا روحي، الصبح جاي، ووراه الخبر الحلو، ورانا الفرج."

استيقظنا على صباحٍ هادئٍ، يحمل بين نسماته أملًا خافتًا رغم ثقل الواقع القاسي، كانت لانا قد فتحت عينيها الصغيرة، تناولت فطورها المتواضع من اللبن والخبز، كما تحب دومًا، محاولة أن تستمد من بساطة ذلك الفطور شعورًا بالدفء والأمان وسط برودة المستشفى التي لا تبرح جدرانه البيضاء.

مرّ الطبيب مع طاقم التدريب، يراقبونها بقلوبٍ مشفقة، فأبدى الطبيب ابتسامة خفيفة وقال:

"الحمد لله، ما في داعي للعناية المركزة بعد الآن."

كانت هذه الكلمات كالبلسم الذي يسري في نفسي، يدفعني إلى الاعتقاد بأننا نقترب من النور في نهاية النفق الطويل. طالما نحن بعيدون عن غرف العناية، فذاك دليل على أن الأقدار تميل لصالحنا قليلًا.

لعبوا معها بلطف، شاركوها ضحكاتها الصغيرة، وأحد الأطباء التفت إلى لانا وسألها بمرح:

"من تحبين أكثر؟ أمك أم أبيك؟"

ردّت ببراءة نادرة:

"التنين."

ضحك الطبيب بمرح وعلّق:

"لو بقيت على هذه الحال غدًا، سيكون لنا شرف الاحتفال بخروجها من المستشفى، خاصة وأن غدًا أول أيام شهر رمضان."

همست في نفسي بدعاء خافت:

"يا رب، اجعل رمضان هذا يحمل لنا الخير، وأعدها إلينا سالمة معافاة."

فجأة دخل والدها الغرفة، وامتلأ المكان بحضورٍ دافئ عندما بدأت لانا تتحدث وتلعب معه، تنثر البهجة في أجواء المستشفى الموحشة، تبعتها جدتها وأخوالها الذين جاؤوا كعادتهم، يحملون معهم دفء العائلة وسط قسوة الغربة والمرض.

كان الطبيب يأتي كل بضع ساعات ليطمئن عليها، وكان يشير بسعادة إلى تحسن طاقتها، حتى أخذتني لانا في نزهة صغيرة عبر ممر القسم، بين أصوات التشجيع والضحكات التي تبعث في النفس أملًا لا ينطفئ، وصوت الآذان والتراويح يتعالى من مكبرات الصوت، كأنه يحرسنا بحنانه في تلك اللحظات الصعبة.

قالت لي بابتسامةٍ هادئة:

"ماما خلص بدي أنام بحضنك."

أعدتها إلى سريرها، وجلست بجانبها أقرأ القرآن، أردد الآيات بصوتٍ خافت، يحاول أن يبدد ظلمة القلق في قلبي.

غفوت لحظات قليلة، لكن استيقظت على صوت أنفاسها المتعبة، كان أثقل وأعلى من صوت الأذان، صوت كأنه يئنّ من ألمٍ لا يراه أحد.

ناديت الطبيب على الفور، وكنت أرتجف من الخوف الذي تسلل إلى عظامي.

تفحصها الطبيب بقلقٍ عميق وقال:

"كانت في حالة جيدة منذ ساعات قليلة، ما الذي حدث؟ حالتها غريبة جدًا، لا نستطيع تشخيصها بسهولة."

نُقلت لانا بسرعة إلى غرفة العلاج ، حيث حاول الأطباء بكل ما أوتوا من خبرة علاجها، لكنها كانت تكافح ذات نفسها المتعبة، وصوت أنفاسها العالي كان يرعب الجميع! أسرعوا بتنسيق نقلها إلى المستشفى الأوروبي حيث توجد العناية المركزة.

دخلت لانا إلى العناية المركزة، هذه المرة بحالة حرجة، ووضعت على جهاز التنفس الصناعي الذي أبقى على أنفاسها تتردد في غرفة مجهولة المعالم، بقيت معها في غرفة خارجية، رغم أن الزيارة ممنوعة، فلم استطع تركها وحيدة في هذا الظلام الدامس.

خرج الطبيب بعد فحصها، وأخبرني بنبرة مهدئة لكنها مليئة بالحذر:

"لا تقلقي، يا أم لانا، بعد يومين ستبدأ بالتحسن، لكن نفسها متعبة للغاية."

شعرت كأن سيفًا يخترق صدري، ووقع هذه الكلمات ثقيلًا على قلبي، كان شعورًا غامضًا بالخطر يحوم حولنا، كأنه ظل يلازمنا رغم كل ما نتمناه من شفاء.

كان رمضان هذا العام مختلفًا تمامًا، ليس فقط بصوته المتقطع، بل بالصمت الذي يخيم على أروقة المستشفى، تحت وقع القذائف وصرخات

الحرب البعيدة، كنت أجلس في تلك الغرفة المظلمة، أدعو وأتمسك بأملٍ ضئيل، أُحادث نفسي وأقول: "يا رب، امنح لانا القوة، وأزل عنها هذا العذاب."

خرجت إلى الخارج، حيث تكسرت السماء فوق المدينة كمرآة مهشمة. الغيوم السوداء تتكدس فوق رؤوسنا، والدخان يتصاعد من بين أنقاض المنازل التي كانت يومًا مأوى للأحلام والضحكات! أسمع انفجارات متقطعة، كأنها دقات قلب المدينة المريضة، تخفق بصمتٍ مؤلم في صدري.

الريح الحارقة تحمل رائحة الغبار والدموع، وأرى العائلات تهرب من بيوتها، تبحث عن ملاذٍ لا يملكه سوى الخيام الممزقة التي تنتشر كأشباح في طرقات مهجورة، كلها قصص مهشمة، وحياة مجروحة لا تعرف الاستقرار.

وقفت هناك، أراقب كل هذا الخراب وأنا أشعر بثقل الألم والقلق يلتف حول قلبي كالثوب الثقيل، كل صوت انفجار يجعلني أتذكر أن السلام بعيدٌ عنا، وأن الألم صار جزءًا من وجودي، لا أستطيع فصله عن أنفاسي.

مع حلول الليل، ينسحب الصمت الثقيل، لكن أصوات التراويح تخرق الظلمة، تمتد كوشاحٍ ناعم يلف قلبي المتعب، ذلك النور الخافت في زمن الحرب هو ما يعيد لي الأمل، يربط بيني وبين لانا في غرفة المستشفى، في معركتها التي لا تتوقف.

أرفع عيني إلى السماء، أتابع الغيوم وأنتظر المعجزة التي أرجو أن تحملها الرياح إلى طفلتي، لأخبرها أن الفجر قادم مهما طال الليل، وأن الحياة رغم كل شيء، تستمر

مرت الأيام، ولانا ما زالت متصلة بجهاز التنفس الصناعي، وأنا أقاوم الخوف الذي يخنقني، مؤمنة بأن الله قريب، وأن هذا الليل الطويل سينجلي بنور الفجر الجديد.

في أحد الأيام، لاح بصيص أملٍ خافت من خلف الغيوم الثقيلة! كانت لانا تتحسن شيئًا فشيئًا، حتى جاءني الطبيب وهو يبتسم ابتسامةً خفيفةً حذرة، وقال:

"يبدو أن هناك فرصة لإزالة لانا عن جهاز التنفس الصناعي."

في تلك اللحظة، لم أتمالك نفسي؛ سجدت لله شكرًا، وغرقت في بحرٍ من الدعاء، كان يقيني عميقًا، راسخًا في قلبي، أن رمضان هذا لن يمر إلا ولانا قد شُفيت، وستعود الحياة إلى ضحكتها، وإلى عينيها اللتين لم تعرفا الطفولة بعد.

****

أدركنا المعبر.. لكنها لم تدرك الحياة

أدركنا المعبر.. لكنها لم تدرك الحياة

وبعد ساعاتٍ قليلة، جاءتني البشرى الأخرى...

"أم لانا، جهّزي نفسكِ، غدًا سفر لانا إلى مصر، التحويلة صدرت."

كأنني سمعت صوتًا من السماء، ضحكت، بكيت، صليت، وضممت لانا إلى صدري!

أخيرًا، ستبدأ الرحلة... رحلة الشفاء... أو هكذا ظننت.

ولكن، في أعماقي، كان ثمة شيءٌ غامض يعبث بي، لم يكن فرحي خالصًا. شعورٌ ثقيل خفي كان يربض في قلبي، لا أدري له اسمًا، لكنه أقرب إلى الخوف! الخوف من شيء لا أراه.

ذهبت إلى البيت أجرّ خطواتي، جهّزت الحقيبة، وقلبي يتخبّط بين أملٍ ورهبة، ودّعت أهلي، إخوتي، أخواتي، نظرت في عيونهم طويلًا، كأنها نظرة مودّع، لا مسافر.

الخوف كان ينهشني، رغم كل التسهيلات، كنت أشعر أن شيئًا كبيرًا يقترب.

عدت إلى المستشفى، وهناك كان والد لانا ينتظر.

نظر إلى طفلته التي بدأت تستعيد لونها، ضمّها إليه بقوة، وقبّل جبينها، ثم همس:

"إن شاء الله، الصبح قبل ما تطلعوا، بمرّ أشوفكم."

مرت الليلة طويلة كثقل السنوات، وأنا إلى جانبها، أراقبها، وألمس أنفاسها كأنها شريط حياة.

طاقم التمريض بدأ تجهيزها للسفر، وأنا لم يغمض لي جفن.

ثم جاء الصباح...

الثامن من آذار، عام 2025، الساعة الثامنة تمامًا.

جاء أهلي وأحمد، ودّعوني على أمل اللقاء...

لكنني، في داخلي، كنت أدفن غزة في قلبي، كأنني أغادر إلى الأبد.

سُلّمت لانا إلى سيارة الإسعاف، ووقف مسؤول من منظمة الصحة قائلًا:

"يلا، جهّزوا لانا، الآن الرحلة تبدأ."

نظرت إلى المكان نظرة أخيرة... غزة، الوجع، الطفولة المختطفة، الحرب، الشهداء، المستشفيات، رائحة الموت! كل شيء بقي خلفي، وقلبي ينزف.

ركبنا سيارة الإسعاف، أمسكت بيد لانا وهمستُ:

"توكلت عليك يا رب."

فابتسمت، وقالت بصوتها الناعم:

"ماما... إحنا رايحين باي بعيد؟"

فقلت:

"آه يا ماما، رايحين سوا، وأنا دايمًا معك."

عند أول حاجز، كان صوت القصف لا يزال يدوي في الأفق، والموت يتسلل من الزوايا.

أخبرنا المسعف أننا قد ننتظر حتى المغرب.

لكن لم تمضِ سوى عشر دقائق، حتى جاءت الموافقة.

قال بدهشة:

"هالبنت حظها غير شكل! كل شي عم يتسهل بسرعة."

وما كنا ندري، أن للأقدار حسابات أخرى.

تنقلنا من حاجز إلى آخر، من سيارة إسعاف إلى أخرى، حتى قطعنا الحدود، انقطع إرسال الهاتف، وانقطعت صلتي بما خلفته ورائي،

لم تكن خطواتي الأولى على الأرض المصرية عادية...

كان كل شيء من حولي يبدو مغمورًا بصمت ثقيل، كأنّ الزمان توقّف ليراقبنا، أنا ولانا، ونحن نخطو خارج جحيم لم يخمد بعد، كنت أجرّ حقيبتي بيد، وأمسك بالأخرى يد لانا الصغيرة، التي رغم وهنها، كانت دافئة، مطمئنة، كما لو أنّها تعرف الطريق، وصلنا مستشفى العريش في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

كان الطريق ميسّرًا بشكلٍ أربك الجميع، الدكاترة، الطاقم، المسؤولون، الكل يتساءل: ما سر هذه السهولة؟

لكن لا أحد كان يعلم، تم نقل لانا إلى غرفة مجهّزة، وكان التعب باديًا على وجهها، لكنه لم يُخفِ تلك البسمة الغريبة التي لم تفارقها منذ الصباح.

بسمتها لم تكن عادية، كانت ساكنة، هادئة، تشبه كثيرًا وجه من يعرف أكثر مما يقول.

في المساء، جلستُ إلى جوارها، أشاهد ضوء المصباح ينعكس على خدّها الطري، وأستمع إلى أنفاسها المنتظمة.

أذّن المغرب، وكنتُ هناك، في بلدٍ غريب، لا أعرف فيه أحدًا، إلّا أنني كنت أشعر أنّ الله قريب جدًا، كما لم أشعر من قبل.

نادتني بصوتٍ خافت:

"ماما؟"

"نعم يا روحي؟"

"انتي تعبتي مني؟"

هززت رأسي وابتسمت، قبل أن تضمّني بذراعيها النحيلتين.

"أنا آسفة... بس لا تعيّطي، أنا بحبك كتير."

بكيت! نعم، بكيت، رغم أنها طلبت مني ألا أفعل، ولكن، كيف لا أبكي؟ كيف لا تنهمر الدموع، وهي تهمس لي في الظلام، بصوتٍ يشبه الوداع؟!

طوال الليل، كنّا نقرأ سويًا سورًا من القرآن، كانت تُخطئ في سورة الناس، فصحّحت لها:

"يا ماما، الله بيزعل لما نغلط"

لكنّها نظرت إليّ، بنظرة حادة، ثابتة:

"لا، ماما... الله بدّه إياني."

تجمّدت.

"شو يعني؟"

قالتها بهدوء، كمن يعرف تمامًا ما يقول:

"الله بدّه إياني... لحالي."

ثم طلبت مني أن أرشّ لها من عطرها المفضّل، وقالت وهي تبتسم:

"أنا بحبك إنتي... وبابا... وستو... وسيدو... أنا بدي أروح باي بعيد".

توقّف الزمن لحظة، لم يعد في الغرفة سوى نبض قلبي، الذي اختنق تحت وقع كلماتها! كانت تتحدث كأنها تُسلّم أمانة، وكأنّها تودّعنا، ولكن بلا دموع.

ما قبل الفجر بدقائق، كان السكونُ أثقل من العادة، في غرفةٍ باردة، داخل مستشفى غريب، كنتُ أضمّ لانا إلى صدري وكأنّي أخشى أن يتسلّل شيءٌ منها بعيدًا عني، كانت تتنفس بهدوء، وكلماتها تأتي ناعمة كهمس الريح:

"ماما، نامي بحضني"

همستُ لها وأنا أضمّها أكثر: "ما بنفع يا روحي، انتي نامي بحضني".

فابتسمت، وطلبت قبلة، قبّلتها، وهمست لي:

"تعيّطيش... أنا منيحة، يا ماما".

غفوتُ...

لا أعلم كيف ولا متى، هل غفوتُ حقًا؟ أم أنّني انطفأتُ للحظة؟ لا أدري. لكنّي حين استيقظت، كانت الساعة تشير إلى السادسة إلا قليلًا، الضوء لم يشرق بعد، لكن بردًا غريبًا تسلل إلى جلدي، بردًا لا يُشبه الصباحات العادية.

مددتُ يدي... لانا... كانت باردة.

لم يكن هناك صراخ، لم يكن هناك نحيب. فقط زرقة خفيفة تتسلل إلى شفتيها، والممرضة واقفة في الزاوية، جامدة الوجه، متيبّسة النظرة.

"يا أم لانا... اطلعي برّه شوي"، همستْ.

لم أتحرك. قلبي رفض، عروقي تجمدت.

صرخت: "بس لانا! أمانة شوفيها!"

جاء الطبيب، لم يرمقني بنظرة، قال بهدوءٍ قاتل:

"يا أم لانا، اطلعي شوي، استني برا".

خرجت. خطواتي كانت مكسورة، كأنّ الأرض لم تعد تقبل وزني، وقفتُ في الممر، وحدي.

البرد ازداد، الضوء ما زال خافتًا، وصوت قلبي أعلى من أيّ شيء.

ثم... خرج الطبيب.

كنت أعرف، من ملامحه، من ظلال وجهه، من انكسار نظرته.

"يا أم لانا، إنتي عارفة بنتك تعبانة... وإحنا مش عارفين شو مالها بالضبط... بس..."

توقف قليلاً، ثم لفظها كمن يطلق رصاصة:

"لانا النبض عندها توقف، حاولنا... بس... لانا ماتت".

توقفت الدنيا.

صرخت. ليس بصوتي فقط، بل بروحي كلها.

"كيييف! هاي بنتي! والله ما لحقنا نوصل! مستحيل!"

ركبت الأرض! لم أعد أملك قدمين، لا، لم أعد أملك جسدًا، صرت أنينًا فقط.

اقترب مني الطبيب:

"يا أم لانا... قومي... ودّعيها... لازم ندفنها".

نظرتُ إليه بنظراتٍ فارغة.

"طب أنا جايه عشانها! طب نكمّل علاجها، نعرف شو مالها!"

هاتف زوجي كان صامتًا، لا يجيب، كيف أُخبره؟ وهو الذي فقد كل أهله، وكل ضوء في حياته إلا لانا؟

اتصلت بوالدي، بصوتٍ مكسور:

"يا بابا... الحقني... بحكولي لانا راحت..."

ردّ وهو يختنق:

"لا يا بابا... لاااا... اصبري... ح ابعتلك حدا...".

انقطع الخط، تمامًا كما انقطع قلبي.

دخلتْ الممرضة بهدوء:

"يا أم لانا... تعالي... شوفي بنتك".

خطوتُ كأنّي تمثال فقد توازنه، رجلي لا تحملني، صدري ينزف أنينًا لا يُسمع.

دخلت... وهناك، كانت لانا.

بلا صوت، بلا نفس، بلا دفء، بلا أيّ شيء... إلّا وجهها... وكأنها نائمة.

جلستُ بجوارها، ناديتها:

"يا بوبو... يا ماما... قومي بالله... أمانة قومي..."

لم تتحرّك.

حركتها، فتحت يدها الصغيرة، لم ترد.

همستُ لها:

"الله يسهل عليكي يا روحي... رايحه عند سِتّك وعمامك؟"

وهنا... نزلت دمعتها.

أجل... دمعةٌ أخيرة، كما لو أنّ روحها ودّعتني من طرف العين.

ضممتها إليّ، وظللت أحتضنها... أربع ساعات.

أنا وهي، وحدنا، في بلدٍ لا أحد يعرفنا فيه.

لا لغة، لا وجوه مألوفة، لا أهل، لا سماء أعرفها.

فقط أنا... ولانا... وبردُ موتٍ ينهش قلبي.

أربع ساعات من العناق، لم أُفلت يدها، كانت يدي على قلبها الساكن، أرفض أن أصدق أنه لن ينبض مجددًا، كانت باردة، لكنّي كنت أدفئها بدموعي، كأن قلبي يحاول استعارتها للحظة، يعيدها لي، يهمس لها:

"ارجعي، لانا، بس شوي"

ناديتُها... بكل ما في قلبي من رجاء، بكل ما في صوتي من حياة.

"لانا... قومي، ماما هنا... لا تخافي، أنا معكِ."

لكنّها لم تُجب. لم تفتح عينيها، لم تتحرّك، لم تهمس كعادتها

بـ"ماما... واوة."

دخل الطبيب، وعيناه مطرٌ صامت.

اقترب منّي وقال بصوتٍ خافت كطعنة:

"يا أم لانا... البقاء لله."

توقّف قلبي. شعرتُ أنّ الأرض تهاوت تحت قدميّ.

كيف يكون الموت بهذه البساطة؟ كيف تُقال الكلمات كأنها تقرير عابر؟

قال لي:

"يجب أن تُغسّل وتُكفّن، تعالي معنا."

لكنني لم أستطع! لم تقوَ روحي على ملامسة جسدها البارد.

كيف أودّع ابنتي الوحيدة، وأنا في بلد لا يعرفني فيه أحد؟

كيف أدفن قلبي بيدي؟

تمتمتُ، بالكاد خرج صوتي:

"غسّلوها أنتم... وكفّنوها... دعوني أراها حين تنتهون."

وبعد ساعة... نادوني.

دخلتُ، فرفع أحدهم الغطاء الأبيض عن وجهها، وقال لي:

"هيا... هذه آخر مرة. قبّليها وودّعيها."

تقدّمتُ وأنا أرتجف.

كانت ساكنة، ملامحها وادعة كأنّها نائمة.

لكن الكفن...

ذاك الكفن الأبيض لم يكن ثوب التخرّج الذي حلمتُ أن ترتديه.

لم يكن الرداء الأبيض الذي تخيّلتها فيه طبيبةً تنقذ الأرواح.

كان لفافةً من صمتٍ، من وجعٍ، من وداعٍ لا يُحتمل.

قبّلتُها... وخدي على خدّها البارد.

سقطتُ، لم أحتمل.

أعاد الرجل تغطية وجهها، ثم حملوها على النعش، وصلّوا عليها صلاة العصر.

وهكذا... رحلت لانا.

****

غربة في المكان وغزة في غربة الزمان

غربة في المكان وغزة في غربة الزمان

رحلت، وتركتني وحدي، في بلادٍ لا تعرفني، ولا أعرف فيها أحدًا.
كنتُ أحيا على أمل أن تُشفى، أن نعود سويًا إلى الحياة.
لكنّ الموت كان أسرع من أمنيتي، وأقسى من كل ما توقّعته.
وكل لحظة بعدها، كانت أطول من العمر، كل لحظة بدونها كانت موتًا آخر
ليس هناك وجع يفوق فراق لانا...
لكنّه لم يكن وجعًا منفصلًا، بل جزءًا من سياقٍ أكبر، سياق وطنٍ يذبح كلّ يوم، سياق مدينةٍ تُدفن تحت الركام منذ عقود، سياق غُربةٍ أنهكت الروح حتى النخاع.
كنت أعيش الغربة، لا كاغتراب عن بيت أو شارع أو لهجة، بل كفقدٍ دائم للوطن، كرحيلٍ لا رجعة فيه عن حضن الأمان، وكلما أمسكت هاتفي وشاهدت مشاهد القصف والمجازر، كان شيءٌ ما في داخلي يتكسر أكثر، أهلي هناك في غزة، وأقاربي والقلوب التي تحبني وتعرفني، هناك يُذبح الناس جوعًا، ويُقصفون في نومهم، ويُمنعون حتى من الدواء.
منذ نكبة عام 1948، ومنذ أن زرعت الصهيونية خنجَرها في خاصرة الأرض، لم تنعم غزة بيوم هدوء حقيقي.

الاحتلال الصهيوني لم يكن مجرّد قوة عسكرية؛ بل آلة قتلٍ جماعي، مُنهجة، تعرف كيف تزرع الموت في تفاصيل الحياة.

مجزرة دير ياسين، مجزرة كفر قاسم، صبرا وشاتيلا، جنين، حي الشجاعية، خان يونس، رفح، وكم من الأسماء الأخرى اختنقت تحت أنقاضها الأرواح والذكريات.

غزة خُصّت بنصيبٍ مضاعف من النار، كانت ولا تزال حقل تجارب لأسلحة الموت، وساحة لتجريب الصمت الدولي، ولرؤية كم مرة يمكن لمدينة أن تنهض بعد كلّ مجزرة، ثم تُقصف من جديد.

الحصار لم يبدأ قبل أعوام، بل منذ أن قرر العالم أن يترك غزة وحدها في وجه الريح.

منذ أن أُغلقت المعابر، وصار الهواء محسوبًا، والماء عكرًا، والكهرباء شحيحًا، والأدوية مفقودة، والمساعدات محجوبة خلف جدران العار.

حتى البحر لم يعد بحرًا! صار سجنًا أزرق، لا يُسمح لأحد بتجاوزه.

والغريب، أن الصمت كان دائمًا أعلى من أصوات الانفجارات.

في الغربة، لا تنام الروح.

كلّ يوم أستيقظ على أخبار جديدة من المجازر، صور أطفال تحت الأنقاض، وأمهات يصرخن بقلوب مقطعة، وكنت أهمس لنفسي:

"يا رب، احمِ أهلي، لقد أخذت مني لانا، ولا طاقة لي بفقدٍ جديد."

الغربة مؤلمة، نعم، لكنّ الألم الأعظم، هو أن ترى وطنك يُسحق، وأنت عاجز.

أن ترحل طفلتك وأنت بعيد، وأن أهلك محاصرون منذ سبعين عامًا، وأن العالم، كل العالم، يعرف، ويسكت.

أن تكون غزة، يعني أن تموت ببطء، وأنت تناضل كي تبتسم.

وحين دفنتُ لانا، لم تكن وحدها من دُفن، دُفنت معها قطعة من غزة، قطعة من التاريخ، ومن الذاكرة، ومن الحلم.

فما أصعب أن تخسر ابنتك، بينما وطنك ينزف منذ أكثر من سبعين عامًا، ولا أحد يسمع سوى أنينك.

مصير الوطن؟

إنّه العالق بين فكّي الغربة والحصار، يتنفس بصعوبة كأنّ الهواء لا يُخلق له، كأنّ السماء قد ضاقت بما رحبت عن صدره.

غزة، ذاك الشريط الضيق من الأرض، باتت أشبه بقبرٍ كبير مفتوح، تُدفن فيه الحياة حيّة، ويُكتب على بابه:

"ممنوع الدخول... ممنوع الخروج... ممنوع الحلم."

كلّ يوم يمرّ، هو معركة من أجل البقاء، لا غذاء كافٍ، لا ماء نقيّ، لا دواء. المساعدات ممنوعة، ومتى سُمح لها بالدخول، تأتي متأخرة، منقوصة، كأنّها شفقة لا حقّ، مخازن الغذاء أفرغها الحصار، وجيوب الناس أفرغها الظلم، وموائد البيوت باتت تكتفي بكسرة خبز وحبّة زيتون، إن وُجدتا.

المجاعة لم تعد خيالًا، بل واقعًا ينهش الأطفال أولًا.

صرنا نرى العظام تبرز من الأجساد الغضّة، والعيون تتسع أكثر من اللازم وكأنها تستجدي لقمة من السماء، صار الحليب حلمًا! والدقيق أمنية.

والغريب...

أن كل هذا يحدث، والعالم يتفرّج، يصمت، أو يفاوض على الوقت.

أما الغربة، فهي الوجه الآخر للحصار.

نحن في الخارج، نأكل ونشرب ونمشي، لكننا لا نعيش.

نحن هنا بأجسادنا، وهناك بأرواحنا.

نحمل صور الوطن في جيوبنا، ونحلم بعودته في كل ليلة.

لكنّ الوطن... في كلّ مرةٍ يُقصف، يُقصى، يُدفن تحت الأنقاض أكثر.

غزة اليوم ليست مجرد مدينة تحت الاحتلال، بل شهادة حيّة على فشل العالم في إنصاف العدل.

محاصَرة منذ عقود، مذبوحة كلّ بضع سنوات، ومضطرة لأن تُعيد ترميم نفسها في كل مرة، كأنها لا تملك الحق في الانهيار.

لكن إلى متى؟

إلى متى تبقى الأم تودّع أبناءها تحت الركام؟

إلى متى يُمنع الطفل من الحلم، والشيخ من الراحة، والمريض من الدواء؟

إلى متى يُدفن العدل تحت الرمال، ويُختنق في المعابر؟

مصير الوطن؟

وطن لا يزال يُقاتل من أجل حقّه في الحياة، بينما العالم مشغول بعدّ الضحايا كأرقام، لا كأرواح.

وطن يُحاصر منذ 1948، ولا يزال يُطالب بحقه في الهواء والماء والكرامة.

وطن نحبّه، ونتقطع عليه، ونعلم يقينًا أنّه وإن ماتت الأجساد، فاسمه لا يموت، حصارٌ بدأ يوم سُرقت الأرض، وما زال مستمرًّا حتى اللحظة!

يُبدّل وجهه من احتلال مباشر إلى جدارٍ خانق، من طائرات إلى منع دواء، من قصف إلى مجاعة.

لم تكن المأساة فقط في أنني فقدت طفلتي في الغربة،

بل في أن الغربة نفسها كانت امتدادًا لهذا الحصار.

كأنني نُفيت عن وطني كما نُفي عنه الخبز، والدواء، والحياة.

كأنّ كل أم فلسطينية في الخارج، تحمل على كتفها نعشًا صغيرًا اسمه: الذاكرة.

حين ماتت لانا، لم أجد من يمسك يدي.

كنت وحدي في بلد لا أعرف فيه أحدًا، كما كانت غزة وحدها في هذا العالم المُتخم بالصمت.

كنت أردد: "ليتها كانت بغزة، ليتها ماتت في حضن الأرض التي أنجبتها."

ثم أبكي أكثر، لأنني أعلم أن الموت في غزة ليس أرحم! بل أشد قسوة، وأن طفلتي لو كانت هناك، لما وجدت سريرًا في مستشفى، ولا أملاً في علاج.

يا لانا...

غادرتِ باكرًا، لكنكِ اختصرتِ الوطن كلّه.

جسدكِ الصغير كان يشبه خريطة فلسطين: نحيفًا من الحصار، متعبًا من الوجع، جميلًا رغم الألم، ومقدّسًا برغم كل شيء.

رأيت فيكِ غزة كلّها...

تتلوّى من الحمى، تبتسم رغم التشنج، وتقول لي في النهاية بصوت خافت:

"ماما... أنا تعبانة."

والآن؟

أعيش وحدي، في وطنٍ مكسور اسمه الغربة.

أراقب غزة تُحاصر، وتُقصف، وتُجَوَّع، ولا أملك إلا أن أقول:

"لم تكن لانا آخر من مات، لكنها كانت آخر من استطعت أن أُحبّه دون أن أخاف عليه من الموت."

.....

"انطفأت لانا كما تنطفئ نجمة اختارت أن تُضيء لغيرها أكثر مما تحتمل. لم تمت، بل انسحبت بهدوء من هذا العالم، كما تنسحب الأرواح النادرة حين تنتهي رسالتها.

لا ضجيج، لا وداع، فقط فراغٌ لا يُملأ، وعبيرٌ يظلّ عالقًا في الذاكرة.

ماتت لانا، ومات معها ذلك السر الغامض الذي كان يسكن بين ضلوعها.

لم يكن مرضها سوى ظل خفي، لا يراه أحد، ولا يسمع له صوت، لكنه كان يُمزقها بهدوء كالنار تحت الرماد.

كان وجهها آخر ما يشبه الطمأنينة، وعيناها آخر مرآة للحقيقة.

والآن، كل ما تبقّى منها: ظلّ على جدار قلب، ونسمة تمرّ في وقتٍ غريب، وكأنها تهمس لنا أن الحياة لا تقاس بطولها؛ بل بجمال الذين مرّوا فيها.

أنا لم أدفن لانا في الأرض... دفنتها في قلبي، وتركتُ جسدي يسير كظلٍ لها، يبحث عنها في كل ما يشبه الغياب."

****

محتويات الرواية

إهداء..... 4
مقدمة..... 8
صغيرتي..... 9
بشارة تشرين 11
ولادة الضوء 15
حضن العالم..... 18
صوتها يشبه قلبي..... 28
قالت نانا فقالت الحرب آن الأوان..... 42
رمضاننا ..عيدنا..ولانا..... 59
ضوء في وسط العتمة 75
هي لم تكن هي..... 84
ارتجاف الفجر..... 87

حين افترقنا عند باب العناية.....97

بلا سرير ثابت.....108

لانا لماذا توقفتِ عن الضحك.....123

أدركنا المعبر.. لكنها لم تدرك الحياة.....136

غربة في المكان وغزة في غربة الزمان.....147

محتويات الرواية.....154

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.